ABU ABDO ALBAGL

محمد كامل الخطيب

هكذا ... كالنهر

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

قصص وروايات عربية

« ١٥ »

الإشراف الفني : زهير الح

هكـذا ... كالنهر

قصص وروايات عربية

« ١٥ »

محمد كامل الخطيب

هكذا... كالنهر

منشورات وزارة الثقافة
دمشق ١٩٨٩
في الجمهورية العربية السورية

هكذا النهر / محمد كامل الخطيب .- ط ١ .- دمشق :
وزارة الثقافة ، ١٩٨٦ .- ١٨٣ ص ؛ ٢٠ سم .- (قصص
وروايات عربية ؛ ١٥) .

١ - ٨١٣٫٠٣ خ ط ي   هـ   ٢ - العنوان ٣ - الخطيب
٤ - السلسلة

مكتبة الأسد

الايداع القانوني ع ٧٦٨ — ١٩٨٦/٩

إلى :

كامل علي حسن..

أبي ..

محمد

« نعيش بلا أمل،
ولكن بشكل دائم »

دانتي

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

القـــريـــة

المعسكر يكاد يكون خالياً فاليوم هو الخميس ،وليس فيه سوى بضعة عناصر للمناوبة والحراسة من بينها المساعد يونس .

استيقظ المساعد من قيلولة بعد الظهر ، غسل وجهه من مياه المقطورة ، احضر ادوات المتة،حمل الابريق وابريق الماء وذهب إلى ظل شجرة زيتون . صنع موقداً حجرياً صغيراً كالذي يصنعونه في الضيعة كل عصر عندما يحين وقت شرب المتة . أوقد ناراً . وعندما سخنت المياه وشرب أول دورمتة تذكر أصحابه ولداته في القرية ، فأحس بالاسى والوحدة :

«هم الآن في القرية تحت السنديانة الشرقية يشربون المتة وهم يتحدثون ويضحكون أحمد ويوسف معلا وحسين المحمود وأخي محمد هم

الآن يضحكون على حسين هل يذكرونني ياترى هل يعرفون أنني الآن مثلهم اشرب المتة لكن بعيداً عنهم هل يعرفون أنني معسكر في كرم زيتون كأنني في الضيعة لابد أن أعود إلى الضيعة قريبا أن شاء الله يكون البيت انتهى أن شاء الله يعود محسن من روسيا بعد أن يتخرج ان شاء الله تتخرج دلال وتجد ابن حلال من منطقتنا الاستاذ يوسف شاب جيد هو سيترك يبرود إلى طرطوس نعيش جميعاً في طرطوس والضيعة اشتغل أنا في تسجيل اسماء المرضى عند محسن اشتغل أي شيء عند ابني ، اشتغل في الارض والزيتون اشتغل عند محسن يكون علي قد كبر يكون قلبي محمد محمد وحده لا يحب الدراسة ماذا لنا غير الدراسة نحن ليس» . . .

شرب كأس متة رابعاً . احس بوحدة شديدة وبأن لا طعم للمتة دون بشر ، لا طعم لها عندما يكون الانسان وحيداً. لمح جندياً ينتقل من خيمة إلى أخرى

— شمدين . . . شمدين . . . تعال

— امرك ياسيدي .

اجاب العسكري متبرماً وهو يظن أن المساعد سيكلفه بخدمة ما

— تعال ياولد . . . تعال واشرب كأس متة

فوجيء العسكري ، حاول الاعتذار . لكن المساعد أصر

— امرك ياسيدي . . . ما هذا ياسيدي ؟ !

— تعال ذق . . . ذق . . . هذا متة . . . عندكم في عفرين لا يعرفونها .

قعد الجندي يشرب المتة وكأنه ينفذ أمراً عسكرياً .

احس المساعد بمودة تجاه العسكري ، سأله :

— ماذا تشتغل في الحياة المدنية ؟

— لا اشتغل شيئاً

— ابداً ؟

— أفلح وأزرع ، عندنا أرض صغيرة

قال الجندي وجلاً ، وهو يظن أن المساعد سيطلب منه شيئاً يحضره من قريته ، فقد حذّره كل رفاقه الذين

خدموا في الجيش من المساعدين ، وها هو المساعد يسأله ماذا يشتغل

— آه . . . فلاح . . . عندكم في عفرين زيتون مثلنا في طرطوس

فكر الجندي أن المساعد سيطلب منه حتماً أن يحضر تنكة زيت لعن في نفسه اللحظة التي قعد فيها يشرب هذا الشراب المر ، وحتى يقطع الطريق على المساعد قال :

— في الحقيقة الزيتون عند عائلتنا قليل . . . والموسم كان سيئاً هذا العام في عفرين

احس المساعد أن الجندي بدأ يشاركه الحديث ، انبسطت اساريره فقد كان يتمنى أن تقل مهابته الآن في نفس الجندي دون أن يقوم هو بتصرف مباشر يعلن رغبته .

— آه . . . صحيح . . . والموسم في طرطوس كان سيئاً هذا العام

سكت المساعد وسكت الجندي ، لكن المساعد الذي يريد للحديث أن يمتد استأنف :

— ما عاد الناس يعتنون بالزيتون . . . كلهم يركضون وراءالوظيفة..وظيفة. .وظيفة.. اشرب.. اشرب كأساًاخرى من المتة ، في البداية يحسها الانسان مرة . . أما بعد أن يتعود عليها ف . . .

سكت ،والجندي ما يزال ساكتاً ومتشككاً في نية المساعد من وراء حديثه وتقديمه المتة ، بل أنه بدأ يتأكد من أن المساعد سيطلب منه زيتاً آخر الحديث .

— وانت هل ستتوظف بعد تسريحك ؟

سأل المساعد راغباً في استمرار الحديث ، ثم تابع :

— والله انا اتمنى لو كان عندنا كروم زيتون ، تكفيني أنا واهلي لاشتغل واعيش معهم ، عندنا زيتون في الضيعة لكنه لا يكفي . أنا عندي اربعة أولاد و . . .

— الله يخليهم . . كم أعمارهم ياسيدي ؟

قاطع الجندي متزلفاً وراغباً في تغيير مجرى الحديث.

— لدي كبار وصغار ، ابني الكبير يدرس في روسيا يدرس الطب . وابنتي في الجامعة .

ثم غير المساعد مجرى الحديث قائلا بعد أن لاحظ أن الجندي يسمع ولا يشرب المتة :

— اشرب . . . اشرب . . . المتة طيبة

— ما شاء الله تبدو شاباً ياسيدي . . . هل اغسل اغراض المتة؟

كان الجندي قد بدأ يحس بالمودة تجاه المساعد على الرغم من أنه ما يزال يخشى أن يطلب منه زيتاً . فكر في نفسه أنه بغسله الأواني يعبر عن شكره على الضيافة ، ويجد مسوغاً للذهاب من حضرة المساعد .

— لا . . لا . . لا تغسلها . . اتركها . . . والله المشي كيس في هذا الوقت . . سأمشي .

كان المساعد قد بدأ يضيق من البقاء وحيداً ، وهو الآن يحس بمودة خاصة تجاه هذا العسكري الفتى الذي وجد موضوعاً مشتركاً وصميماً معه للحديث ، ولهذا تابع وكأنه يبوح بسر خاص :

— سأمشي في الكرم

وفكر أن يطلب إلى العسكري أن يمشي معه . لكن كبرياءه العسكري منعه من ذلك .

قام الجندي وذهب إلى خيمته فرحاً لأنه اغلق على المساعد باب طلب تنكة زيت ؛ بينما مشى المساعد عبر كرم الزيتون وهو يفكر بأن هذا العسكري مثله عنده

زيتون ، وربما يكون اهله مثل اهله هو يقلمون الزيتون الآن في قريتهم . نظر إلى اغصان شجرة زيتون فرأى غصناً يابساً . كسره بيده ، بعدهرأىغصنا زائداً ، كسره. كان هناك غصن كبير وقوي حاول قطعه لكنه لم يستطع. نادى العسكري :

— شمدين . . . شمدين . . . احضر البلطة من براكتي وتعال ساعدني . . . البلطة . . . البلطة تحت السرير

أتى شمدين حاملا البلطة

— نعم سيدي

— شايف ؟ . . ها غصن زائد . . اريد أن اتسلى . . شايف ؟ ها غصن آخر . . اكسره أنت . . سأقطع أنا ها الغصن ، شايف ؟ ! . . . . هي ايام تربية الزيتون . . .

اخذ يونس وشمدين يقلمان الشجيرات ويتحادثان عن قريتيهما ، مر جنديان قربهما ، رأوهما . قال الأول للثاني ساخراً :

— تطلع . . . تطلع . . تطلع كيف يشتغلان . . . كأنهما يعملان في كرم ابيهما ! !

دلال

قاربت الساعة العاشرة ، ولم تصل دلال ، فبان القلق على وجه المساعد يونس ونظر إلى وجه زوجته بنظرة متسائلة ومعاتبة ، أمالت الام عينيها هاربة من نظراته وسألته :

– هل تشرب الشاي ؟

عرف يونس أنها قلقة مثله ، وانها تريد ان تتشاغل فسألها :

– ياخديجه . . . هل قالت دلال أنها ستتأخر ؟

– لا . . . ليست عادتها . . . غريبة !

اجابت الام بقلق ظاهر ، ثم مطمئنة الاب أضافت :

– لن تتأخر . . قريباً تصل

ثم التفت إلى الصغير علي وقالت :

– علي . . اقرأ درس القراءة لابيك . .

قام علي يحضر الكتاب ، أما الاب فقد عاد يسأل قلقاً :

– هل هي عند فوزية ياترى ؟

نافذة الصبر اجابت الأم :

– ما اعرف . . ما قالت لي . . تأتي ، لا تقلق . . ربما هي عند فوزية

كانت الام اكثر قلقاً من الاب ، لكنها أحست أن واجبها هو أن تطمئن الوالد ، كانت تحاول ان تبدو متماسكة ، لكن طبعها الرقيق ، ومحاولتها اظهار الثقة والصبر كانا يفضحان انشغالها .

أضافت :

— هي لاتتأخر . . هذه اول مرة ، عندها اشغال كثيرة الله يعطيها العافية ، دروس وتدريس ومطالعة واصدقاء .

احضر الصغير علي كتاب قراءة الصف الثالث ، وبدأ يقرأ . كانت قراءته جيدة فسر الوالد وقال لابنه وكأنه يخاطب رجلاً مماثلاً له :

— في ايامنا كانوا يعتبرون السرتفيكا شهادةعالية. كانوا يقيمون حفلة لمن يأخذها . كان الانسان يتوظف بهذه الشهادة ، كان يصير رجلاً . اما الآن فحاملها طفل .

ضحك علي وهو يسمع للمرة الأولى في حياته كلمة سرتفيكا الغريبة على مسمعه .

— الله يعطيك العافية ياعلي . . . قم ونم

قال الاب وهو يعيد النظر بعينين قلقتين سائلتين الى زوجه

— ومحمد اين هو ؟ بكير عليه للسهر خارج البيت ؟

— لاأعرف . . احس ان هذا الولد سيخفق في دراسته . ليس مجتهداً مثل محسن .

أرادت ان تقول: ومثل دلال كذلك ، لكنها آثرت الا تذكرها حتى لا تذكر الاب انها لم تصل بعد .

أضافت :

– اخاف عليه من رفاق السوء . . انا غير مطمئنة الى رفاقه

– انا في الجيش وانت في البيت والاولادمهمتك.. إنني أتعب وأشقى . .

سمعا صوت مفتاح يدخل في قفل الباب

– دلال . . أنت ؟ !

هتفت الام وكأنها انتصرت ، اما دلال فقد دخلت ضاحكة . وهي تتوجه الى أبيها قائلة :

– بابا . . اعتذر . . اضطررت للتأخر

– قلت لك لن تتأخر .

قالت الام . اما الاب فكان البشر واضحاً على وجهه وهو يرد على ابنته :

– اهلاً دلول . . . اهلاً . .

اجاب الوالد . توقف لحظة وهل يستشير نفسه : هل يحدثها عن تأخرها ام يتجاهل الموضوع ؟ دون ان يحسم الامر سمع نفسه يقول :

– يابنتي تعرفين كم اثق بك ، لكن اولاد الحرام كثر هذه الايام والحوادث كثيرة ، هذه مدينة كبيرة ولا أحد يعرف احداً فيها ، سمعت اكثر من حادثة عن سواقي السيارات ة . . .

كاد يحدثها عن حكاية سمعها في المعسكر عن فتاة اغتصبت . لكنه عندما نظر ورأى وجهها النضر أمامه أحس هول هذا الحديث . هول هذه الحادثة ، هول هذه الفكرة ، ان تغتصب دلال ذات يوم. ان تقتل ، ان يمثل بجثتها كما حدث لفتاة قرية الشيخ سعد ، ان يفقدها. هي ابنته الوحيدة المدللة ، لم ينطق كلمة الاغتصاب بل تابع :

– سمعت العام الماضي عن البنت التي قتلت ورميت جثتها في باحة المدينة الجامعية. فتاة مثلك كانت تسهر في الخارج واتت مع سائق تكسي وحيدة ، انت تع . . .

– بابا ..انا لاأتاخر دائماً.. اليوم فقط دعانا دكتور

الدارما الانكليزي مع زملائي وزميلاتي لحفل شاي في بيته ، وقد جرنا الحديث وسهرنا فنسينا الزمن لاننا كنا نمرن لغتنا الانكليزية . . يا بابا اللغة بحاجة الى ممارسة مثل القراءة . . .

وكأن دلال احست بثقل هذا الحديث ، فانعطفت به نحو امها قائلة :

— ياماما . . اين الأكل . . جعت بعد الشاي . . . هؤلاء الانكليز دقيقون . . عندما يقولون شاي . . شاي فقط ولايطعمون شيئاً الا الكاتو .

قام الاب الى فراشه مطمئناً وهو يفكر :

« دلال بنت جيدة ويجب ان تتعلم وان شاء الله تكون ناجحة مثل اخيها محسن » .

دلال

— عجلي ياامي . . . عجلي لم يعد لدي وقت . . تأخرت

وتركض الام متسائلة من سترضي ؟ ؟ دلال المستعجلة ابداً ، ام يونس الذي يخاف ان تفوته سيارة القافلة ؛ ام علي الصغير ، ام محمد الذي لايعجبه شيء ، والذي يصر على التاخر في النوم

— الشاي . . الشاي . . اين الشاي ؟

— هاتي الزيتون !

— اين الخبز ؟

والام تركض وتركض ، وعندما ترى يونس خارجاً في الباب وفي يده لقمة خبز تدرك ان جريها عبث على الرغم من تعبها واستيقاظها المبكر .

يركب يونس السيارة ويذهب الى قطعته ويذهب علي الى المدرسة . وتذهب الام تحاول ايقاظ محمد النائم ابداً . اما دلال فتذهب الى داريا حيث تعطي ساعات لغة انكليزية في اعداديتها .

هذا الصباح وقف الاب على الباب وخاطب امرأته وابنته قبل ان يخرج قائلاً :

— هاالليلة انا مناوب . . لاأحد عند اخوتك.. انت الكبيرة في البيت . . . .

قال الوالد وكأنه يود ان يذكر دلال انها بدأت تتأخر في العودة الى البيت دون ان يجرحها . كان يخاف ان تعتبر ابنته كلامه نوعاً من عدم الثقة بها ، لكنه لم يستطع اخفاء مخاوفه ،فاكتفى بتذكير دلال انها هي مكانه في البيت ؛ اما الام فقد قالت لدلال عندما خرجت ذاهبة ال داريا :

— دلال لاتتأخري . . قد يزرونا الاستاذ يوسف هذا المساء . . . اليوم الخميس . وارى انكما تستمتعان بالكلام معا

اجابت دلال :

– صحيح سيأتي الاستاذ يوسف ؟ . . لن اتأخر، عندي ثلاث ساعات تدريس في داريا . بعدها سأذهب الى الجامعة . ثم سأذهب من هناك مع فوزية الى بيتها ؛ منذ زمن لم أزر امها وطفلها سأكون هناك قبل السابعة . . قولي للاستاذ يوسف انيبقى طويلاً اذا تأخرت . . أحب حديثه

– اخوك محسن الله يوفقه ويرجعه بخير كان يبقى في البيت اكثر منك . على الرغم من انه شاب ، سلمي لي على فوزية ، قولي لها ان تأتي

– لافرق بين البنت والصبي . . السنا متفقين ياماما ؟ ثم اضافت ضاحكة : هل رأيت حلماً جديداً هذه الليلة ؟

كانت الام تحب فوزية صديقة دلال التي تعلم معها في داريا وتدرس مثلها في الجامعة . كانت فوزية اكبر من دلال. عندها طفل ، ونحسن احاديث النساء اكثر منها . وكثيراً ماتتسلى مع ام دلال وتبصر لها في

القهوة . وتتبادلان الاحاديث حول احلامها بينما تسخر منهما دلال .

ـ بخاطرك ياماما

ودعت دلال ومشت باتجاه موقف الباص ومفكرة بتلميحات أمها وأبيها :

« هم طيبون واثقون بي لكن يبقى في اذهانهم مخاوف قديمة مهما كانوا طيبين وواثقين يريدون ان يفرضوا وصايتهم عقلية قديمة تحتقر البنت هذا هو المجتمع الشرقي مهما حاول الناس فيه ان يبدوا متحررين يبقون في اعماقهم متخلفين دائماً لديهم مخاوفهم تجاه المرأة لاأعرف لماذا يخافون علي انا اشتغل مثل ابي لايمكن لاحد ان يضحك علي الرجال في بلادنا لايثقون في المرأة لانهم لايثقون بانفسهم الرجا . . . »

ـ صباح الخير ياحلوة

التفت دلال فرأت شاباً يحاول مغازلتها . ادارت وجهها وصعدت الى باص داريا متابعة افكارها :

« هؤلاء الزعران الرجال الحقيرون دائماً كلهم لاينظرون للمرأة الا نظرة جنسية لا يريدونها ان تتحرر لتبقى فريسة وخادمة والله لن أتزوج الا رجلاً يعاملني باحترام والله لن اتزوج ليس هناك من رجل يحترم المرأة لايوجد هذا الرجل في بلادنا لايوجد ابداً كل الرجال الشرقيين متخلفون متى يتحضرون كالرجال الاوروبيين الدكتور. مورتون وايت كم يختلف عن اساتذتنا العرب سأعيش وحيدة حتى ولو لم اتزوج الفتاة الاوربية تعيش وحدها تستأجر غرفة وتعود الى البيت متى تريد هناك الرجال لايلطشون في الشوارع على النساء الرجال هناك مهذبون الدكتور مورتون وايت هو الوحيد الذي دعانا الى بيته بيت بسيط حتى الاشياء الشرقية رأيناها بعيون جديدة في بيته آه لو استطيع ان ازور اوروبا مرة واحدة لو أهاجر من هذه البلاد وأتخلص من هذا المجتمع المتخلف اهلي طيبون لكنهم يبقون من هذا المجتمع المهم ان تعيش المرأة حياتها حريتها اخي ذهب الى روسيا لم تكن هناك مشكلة انا واثقة انهم ماكانوا ليسمحون لي لو طلعت لي منحة كانوا رفضوا قوانين الاحوال الشخصية عندنا

لاتسمح للمرأة بالسفر دون اذن وليها ضروري ان يكون للمرأة ولي هنالك في أوروبا المرأة مسؤولة عن نفسها في او . . . . »

– أخ . . . عفواً

قالت دلال بعد ان انتبهت الى انها اصطدمت برجل عجوز يسير على الرصيف . بينما كانت تنزل من الباص.

– بسيطة يابنتي . . . انتبهي الله يستر عليك

كانت قد اقتربت من الاعدادية ، نظرت باتجاه الباب الاسود ، فانقبض قلبها :

« كل شيء اسود مثل هذا الباب المديرة والطالبات لماذا انا مضطرة للتدريس وانا طالبة لماذا لا اتفرغ لدراستي الجامعية مباشرة واحضر كل الدروس هذه هي بلادنا المتخلفة الفقيرة في اوروباالطالبة طالبة والمعلمة معلمة بكير على العمل والتعتير » .

حاولت دلال ان تضفي شيئاً من المزاح على افكارها الجدية . وهي تمر عبر الباب الاسود وترى الطالبات متحلقات حول فوزية في الباحة

– صباح الخير

القت التحية على فوزية والطالبات ، نظرت اليها فورية ضاحكة ، ثم حركت رأسها بامالة غنج شرقي اصيل ومدروس وقالت للطالبات « اراكن فيما بعد » ثم وكأنها تتابع حديثاً سابقاً بعد ان ردت التحية :

– كنت جميلة جداً في سهرة الامس . ألم أقل أنك امرأة حقيقية فلماذا تهملين نفسك؟ . . اتركي هذه الجدية وهذه الافكار الفوضوية واعتني بنفسك اكثر ألم تلاحظي نظرات الدكتور إليك . . . يو عليك ملعونة وحبابة امر . . . .

– اسكتي يا . . . سنذهب بعد الجامعة معاً الى بيتك اشتقت لرائد وامك . . اسرعي الى الصف . . هادخلت الطالبات الى الصف .

يوسف

الخميس ظهراً ، كل اسبوع ، يحضر يوسف من يبرود ، يدور في شوارع دمشق ، يبحث عن فلم جديد ، كتاب جديد ، سهرة يروح بها عن نفسه بعد أسبوع عمل، اسبوع تدريس وقراءة ووحدة ، حتى صار للخميس برنامج محـــدد عند يوسف : يصـــل بعد الظهر ، يتصل بزهير القواسمي ، يتفق واياه على اللقاء ليلاً . في الثالثة يذهب إلى السينما اذا كان هناك فلم جيد . بعد الخروج من السينما يدور على المكتبات ويرى ان كان ثمة ما يهمه . بعد المكتبات يزور بيت اقربائه في المزة : بيت المساعد يونس المحمد . فأم محسن هي ابنة خالة امه . والمساعد هو ابن عم ابيه . وكما في كل القرى فأبناء القرية هم اقرباء لبعضهم بعضاً بدرجة من القرابة بعيدة أو قريبة .

في الشهور الاخيرة صار يوسف يحس برغبة اقوى

في زيارة بيت المساعد . فقد بدأت الاحاديث والنقاشات تمتد بينه وبين دلال ، بدأ يعجب باستقلالية شخصيتها وبفطنتها . ومتابعتها للقراءة والسينما ، وينبغي ان يكون اعمى حتى لايلاحظ جمالها . وقد صمم هذا المساء انه سيدعوها الاسبوع القادم الى السينما .

اتصل يوسف بزهير فور وصوله ، واتفق معه على اللقاء في التاسعة ، يشربان نبيذاً ويسهران سوية . وبعدها ينام يوسف عند زهير الذي يعيش وحيداً . ذهب يوسف الى سينما الكندي فرأى اعلانات فلم عربي تجاري . تابع سيره في الشوارع على غير هدى وهو يفكر :

« بدأت أسأم هذه الحياة هذا التكرار هذه الدروس هؤلاء الطلاب هذه البيرود هذه الشام حتى عطلة الاسبوع اصبحت مكرورة لاجديد فيها لا سينما لا جديد سينما وشوارع ومكتبات وبيت ابي محسن دلال فتاة لطيفة ذكية حتماً عندها حبيب لايبدو من كلامها انها مرتبطة بأحد تعاملني كقريب وكاستاذ جاد ربما تحترمني كاستاذ فلسفة كقارىء كتب هي متعودةعلى الجو الشامي ولدت وتربت في الشام لن تقبل بالعودة الى طرطوس بالعيش

في مدينـــة غير دمشق عندمـــا يشغر مكان لي سأعود الى طرطوس مللت هذه الحياة هنا لاأم ولا أب ولابيت مريحاً احياناً ابقى اسبوعاً دون ان اكلم امرأة الا الحديث الرسمي مع الزميلات المتزوجات كرهت الوحدة والفراغ في بيروت ودمشق لولا زهير كنت اختنق اخاف انني اثقل على زهير كل اسبوع اربطه بي ، ربما لديه سهرات واعمال خاصة مساء الخميس يجب ان أقلل من اتصالي به يوم الخميس انوع اماكن سفري اسبوع الى دمشق اسبوع الى حمص اسبوع الى حلب الموصل . . . . .

— لك مرحباً يايوسف

انتشله من افكاره صوت . وقبل ان يتعرف جيداً الى المتكلم اجاب بأهلا ، ثم التفت الى المتكلم فاذا هو احمد العبود

— يااهلا احمد . . ماذا اتى بك الى الشام ؟

— استدعوني للاحتياط . .. واذ الم يستدعوك؟ خدمنا معاً ، أنت وحدتك ...

احس احمد بمفاجأة في البداية . ثم تذكر الاحوال

السياسية العامة والاوضاع في لبنان ، بعدها ومضت في ذهنه حالته الخاصة فقال :

ـ ياليت . . فرصة لتغيير هذا الجو . . . . انا خدمتي في طرطوس ..اعود الى هناك

ـ لاتعرف اين يشلحونك

قال احمد العبود متبرماً ، فأجابه يوسف موضحاً :

ـ لا . . انا خدمت في المدفعية الساحلية ، لكن لماذا الاحتياط الآن ؟

ابدى احمد دهشة من سؤال يوسف . فهو يعرف ان من المستحيل ان تغيب الاحوال والتوترات السياسية عن ذهن يوسف . فقد كانا طالبين معاً في ثانوية طرطوس الرسمية ، يومها كان يوسف كثير النشاط والحديث في السياسة . وكان احمد ممن يأخذون منه جريدة «الشعب» وهو يعرف ان يوسف مستمر في التزامه

ـ يبدو انك تركت الاهتمام بالسياسة ؛ مللت السياسة وتوزيع الجرائد . الم تسمع بأخبار لبنان ؟ الحرب على الابواب .

كان احمد يريد ان يذكر يوسف بالماضي . ابتسم

يوسف الذي كان يريد ايضاً ان يذكر احمد بقلة احتفائه بالسياسة مدعياً انه ليس سياسياً ، وانه بعد الثانوية سيذهب ليتابع دراسته في امريكا تاركاً الفخار يكسر بعضه في هذا البلد اللعين كما كان يمازح يوسف . باسماً اجاب يوسف :

— سيدي . . . فخار يكسر بعضه . . ماعلاقتنا .

لم يدرك احمد وجه السخرية والتخابث في جواب يوسف ، وربما لم يتذكر ماكان يقول ، فهو في الحقيقة لم يذهب الى امريكا ، ولم يتابع دراسته بل افتتح محلا تجارياً مزدهراً ، ولهذا اجاب محتداً :

— لكنهم يكسرون الفخار على رؤوسنا . . لقد اغلقت المحل بسبب الاحتياط ، تعر . . .

قاطعه يوسف :

— انا ماعندي تجارة ولامال . . لتضعني الدولة حيث تريد ، انا موظف عندها . . في العسكرية ، وفي التدريس . . لافرق .

كان يوسف يذكر احمد بسخريته منه عندما يمر

عليـــه في طرطوس معيراً ايـــاه بانه موظف قليل الدخل . اما احمد فقد حاول ان يستجلب يوسف الى المشاركة في محنتـــه ، بأن تبنى تشبيهـــه للامر بالفخار فقال متذاكياً :

– ليس فخاراً بل هي صواريخ هذه المرة .

عندها كشف يوسف ورقته وذكر احمد :

صدقت . . . منذ خمسة عشر عاماً وانا اقول لك هذا . . لكنك لم تعرف الفرق بين الصواريخ والفخار الا عندما ازدهرت تجارتك ، انت . .

افاق احمد من دهشته . فتذكر كل المشاحنات والنقاشات والسخريات ، بل تذكر اساليب يوسف الخبيثة في الحوار فقال ضاحكاً :

– تبقى خبيثاً ...

ومشيراً الى انتماء يوسف السياسي اضاف :

ـــ أراهن انكم تعرفون كل شيء.. تعرفون هل ستقوم الحرب ام لا . .

يوسف

خرج يوسف من سينما الكندي ، كان الفلم جيداً هذا الاسبوع ، مشى باتجاه مكتبة النوري . تفرج على الكتب فلم يرجديداً .علل ذلك بانقطاع الاستيراد من لبنان، وزيادة توتر الاحداث ، فكل شيء يبدو متوتراً ، ولاأحد يهتم بالكتب ولاحديث للناس الا موضوع لبنان والبقاع والصواريخ ، هل تسحب سوريا الصواريخ ؟ هل تضربها اسرائيل ؟ كان يوسف مقتنعاً ان اسرائيل لن تهاجم ، وهو يعرف ان هذا الموضوع سيكون مدار حواره مع زهير هذه الليلة.زهير الذي يرى ان الاسرائيليين سيهاجمون. تذكر يوسف انه سيذهب الى بيت المساعد فقال في نفسه بانه ربما يجد خبراً مالدى المساعد ، ثم مازح نفسه هامساً :

« سأنشغل بالحديث مع دلال وانسى الصواريخ
سأنشغل برد صواريخها واطلاق صواريخي »

خرج من مكتبة النوري بعد ان اشترى كتاباً فلسفياً عن عصر التنوير .مشى باتجاه جسر فكتوريا .وصل موقف سيارات المزة الصغيرة ، ركب سيارة وهو يفكر بدلال . نزل في موقف الشيخ سعد واتجه الى بيت المساعد . قرع الباب ففتحت دلال مرحبة ضاحكة :

ـ اهلاً بالاستاذ . . اهلاً ومرحباً .. كتاب جديد حتماً ؟

حاول ان يبدو رسمياً عله يستطيع ان يخفي برسميته لهفة قلبه وعينيه ، قال :

ـ مساء الخير ياآنسة دلال

ادركت دلال ان يوسف يتكلف الرسمية ، فبرق في ذهنها ان تلعب لعبته نفسها . بقيت واقفة على الباب تنظر الى وجهه كمن يسأل« نعم؟» ودون ان تقول تفضل، ارتبك وتابع :

ـ الوالد موجود ؟

قررت ان ترمي كرتها عابثة ، ابتسمت وهي تجيب :

ـ واذا لم يكن موجوداً الا تشرفنا ؟ تفضل . . تفضل

اجابت وهي تتنحى عن الباب مفسحة الطريق له ليدخل ، بينما كانت تقول لنفسها :

« صاحبنا إما مرتبك او متضايق من خدة نقاشي ونقاري معه الاسبوع الماضي ربما يحاول اخفاء عواطفه »

كانت بيت ابي محسن قديماً ، ضيقاً ، يتألف من غرفتين بينهما صالة واسعة ، كانت الام والاب ينامان في غرفة ، بينما دلال والصغير علي ينامان في الغرفة الثانية ، اما محمد فقد كان ينام على ديوان في الصالون الذي يستعملونه للجلوس واستقبال الضيوف. كان البيت يبدو مزدحماً دائماً بالضيوف من القرية والجيران ، واصدقاء الوالد ، وزملاء محمد ، اصدقاء وصديقات دلال . وكانت دلال تقول ان ضيق البيت وازدحامه هو احد اهم اسباب بقائها كل النهار في الخارج ، وكانت تمزح قائلة ان المرء يجب ان يبقى امسية على الاقل ، في البيت ، وقد اختارت الخميس .

عندما دخل يوسف الصالة لاحظ ان ثمة ترتيبات جديدة ، فالاغطية جديـــدة ، وثمة باقة ازهار فوق التلفاز ، وحتى يداري ارتباكه المفاجيء ، فقد وجه حديثه نحو الازهار :

— ازهار جميلة ! . . . لاريب انها من اختيار الانسة دلال .

قال ممازحاً بعد ان احسن انها لاحظت ارتباكه . وكأنما يريد ان يثبت لها أنه غير مرتبك .

— شكراً على هذا الغزل الرفيع و . . .

ثم ضحكت بصوت ساخر ، إذ قطع حديثها صوت الام والاب وقد خرجا من غرفتهما ليرحبا بيوسف

— اهلاً وسهلاً . . كيف الحال ؟

رحبت ام محسن ، اما الاب فقد رحب قائلاً :

— اهلاً . . . كيف حالك . . لماذا لم تأت الى الغداء اليوم ، ألم تدعك دلال الاسبوع الماضي ، انا اسف كنت مناوباً فلم ارك .

– كنت بعد الظهر في السينما .

قال وكأنه يسوغ للاب عدم مجيئه بعد الظهر ، لكنه كان يتوجه بكلامه الى دلال ، فهو يعرف أنها تتابع الافلام السينمائية ، وانها ستسأله عن الفلم ، كان يود أن يبدأ الحديث معها على الرغم من تأكده انهما سيختلفان .

– في أي فلم كنت ؟

سألت دلال

– الشرطي . . فلم جيد . . ممتاز . . ابطال . . .

– اعرفه . . رأيته العام الماضي في النادي . . فلم سخيف .

ادرك يوسف انها تريد مناكدته ، وانها قالت عن الفلم انه سخيف لمجرد انه وصفه بالممتاز ، فقرر ان يوجه لها احد صواريخه :

– معك حق انه سخيف

قالها بلهجة تعني : أنا أعرفك لو قلت لك هذا فلم سخيف ، لقلت :لاهو فلم ممتاز . لكن دلال لم تستسلم وتابعت :

— فلم عادي عن حياة شرطي . .

— هنا وجه جودته انه يرينا كيف يتحول الانسان العادي الى أداة قمع .

أوضح يوسف راغباً في نقاش جدي مع دلال ، لكنها لوت شفتيها وقالت :

— كان ينقصنا هذا المشهد ، اننا نراه كل يوم ، نرا . . . . .

قاطعها الاب الذي كان يريد التحادث مع يوسف . .

—كيف احوالك يااستاذ يوسف . . كيف يبرودمعك؟

التفت يوسف الى الاب وهو يجيب مبتسماً :

— يبرود بلدة لطيفة..لكن الحياة فيها . . محدودة . . ليس هناك مكان تذهب اليه الاالتجول في البساتين ومنتزه ....

تدخلت الام في الحديث قائلة :

— يبرود قريبة . . . خلال ساعة تكون في الشام . . خذ لك غرفة واطلع صبا . ..

قاطعت دلال بلهجة متوترة :

— ومن يستطيع ان يجد غرفة رخيصة في دمشق ، كنت . . .

كانت تود ان تقول كنت استأجرت غرفة لي ، لكنها لم تجرؤ على الافصاح .

عاد الاب الى الكلام قائلا :

— يبرود فيها بساتين مخدومة ، فيها بساتين كرز واجاص ، زميلي المساعد ابونبيل عنده بستان كرز يقضي كل اوقاته خارج الخدمة فيه .

— ثم ان حياة الوحدة والفراغ صعبة ، انا اطبخ عندما اسأم من الاكل في المطعم ، انا اغسل ، انا . . .

تابع يوسف كلامه ، فتحركت عواطف الام وقالت :

— انت مثل ابني ، يايوسف نحن اهل . . عندنا غسالة اتوماتيك ، احضر لنا ملابسك كل اسبوع . . أنا مثل أمك ، انت...

تدخلت دلال :

ـ ماعليه هو او غيره من الرجال . . ليغسلوا ، ليطبخوا ، و ا . . .

قاطعها يوسف مناكداً .

ـ وحضرتكن تذهبن الى السينما والكوافير والى . .

قاطعته بحدة وكأنها تريد نزالاً جدياً :

ـ لا . . . لا ، نذهب الى المصانع والمدارس والمكاتب.

ادرك يوسف ان ثمة توتراً ما في داخلها وهي تصرفه في هذه الثورة المفتعلة ، وفي عرض رأي تعرف مسبقاً انه يؤيدها فيه ، لكنها تريد ان تلبسه رأياً اخر حتى تهاجمه . قرر ان يلبس الدور الذي أرادته ليمعن في مناكداتها ، لكنه حاول ان يضفي شيئاً من الدعابة على لهجته وهو يرد :

ـ وعندها نبقى نحن الرجال في البيت نغسل ونطبخ حتى تعود حضراتكن من المعامل والمدارس والمكاتب (كان يقلد لهجتها مما اثار حنقها) فتجدن المائدة جاهزة ، ماالفائدة؟ نتبادل الادوار ، نبقى نحن الرجال في البيت وين . . .

ـ تبقون في جهنم .

فوجيء يوسف بعبارتها ، وهي توقفت بعد ان لفظتها وكأنها تراجع نفسها نادمة ، حاولت اصلاح غلطتها بالعودة الى الموضوع الذي بدت عبارتها وكأنها بمحاولة لانهائه :

ـ بصراحة رأيي ، كل الرجال رجعيون و . . .

كانت تود ان تقول حقيرون ، لكن تماسكت ثم تابعت :

ـ . . . يتحدثون عن التقدمية في المقهى والكتب ومع بعضهم ومع النساء اللواتي يريدون اغواءهن أما مع نسائهم ، مع امهاتهم وزوجاتهم واخواتهم فيمارسون احقر انواع الرجعية . . كل الشرقيين هكذا ، كل . .

عادت حدة صوتها ترتفع ، احس يوسف لبرهة انها تعنيه شخصياً ، وأنها تريد اهانته ، قرر أن ينهي الموضوع مازحاً عنه ينجح في تخفيف توترها ، فقاطعها قائلا :

ـ الحمدلله ليس لي زوجة وامي واختي في الضيعة .

وجدتها الام فرصة مناسبة للتدخل ، فقالت محاولة تغيير الموضوع :

– يادلال . . علي تأخر . . اين هو ؟

– عند الجيران

اجابت دلال ثم وكأنها تتابع حديثاً ، بعد ان اتى المزاح بمفعول عكسي ،اذ جعلها تشعر ان يوسف يسخر منها ويتعالى عليها ، قالت :

– هكذا تهربون من الموضوعات الجدية دائماً . . بالضحك ،بالسخرية . . هكذا الرجل الشرقي . . الرجل الاوروبي لايضهطد المرآة ا . . .

– غيري لنا هذا الموضوع يادلال . .

ثم ضحك الأب وقال محاولا الاصلاح بين دلال ويوسف :

– ثم انك لاتستطعين ان تزاودي على يوسف في التقدمية .

قال الاب ذلك ضاحكاً ، ثم توجه الى يوسف راغباً في تغيير الحديث :

ـ ماآخر الاخبار السياسية ياالاستاذ يوسف ؟

كان الاب مصراً على مناداة يوسف بالاستاذ لايقيم حاجزاً بينهما ، بل ليفهم دلال انه يحترمه ، وان عليها في حديثها ان تكون اكثر حرصاً :

ـ الاخبار عندكم في الجيش يابابا محسن . . انتم العسكر بيدكم كل شيء قال . .

ـ العسكر هم حكامنا .

تدخلت دلال بلهجة مازحة ، وكأنها لاواعية تريد ان تطلع يوسف على رأيها ، في حين كانت تردد عبارة قالها لها الاسبوع الماضي بالحرف .

ـ اعني هل ستحدث المعركة ام لا ؟

اوضح المساعد سؤاله

ـ علمها عند القيادات العليا

اجاب يوسف بينما كانت الام تقول :

ـ بعيد الشر . . ان شاء الله لايحدث شيء

— استاذنا الانكليزي في الجامعة قال بان الحرب ستقوم هذا الصيف . .

قالت دلال ، ففوجيء يوسف بمن تستشهد وعلى من تعتمد في كلامها ،وتذكر انها الاسبوع الماضي حدثته عن استاذ الدراما الانكليزي ، وعن زيارتها له هي ورفيقاتها ورفاقها ، فيوسف كأي ريفي يحس بشعور الخوف والتوجس تجاه الاجانب والغرباء .[1] اجاب ساخراً :

— وهل يدرسكم اخونا دراما ام تنبؤات سياسية وعسكرية ؟

احس يوسف ان لهجته الساخرة قد ازعجتها واستثارتها من جديد بعد ان بدأت تهدأ . محاولاً الانسحاب قال :

— قلت لي انه استاذ لطيف ، كيف احواله ؟

لم يفت دلال مافي انسحابه المتودد من خبث ، وربما من امعان في الاتهام أوهكذا فسرت سؤاله ، فقد اصبحت تعرف اسلوبه في تغطية انسحابه بمزاح يكون أخبث من هجومه الجدي .

دافعت عن نفسها وهي ترغب في اغاظته ، فقالت ساخرة :

— يبوس يدك

ثم عدلت لهجتها نحو جدية متكلفة وتابعت :

— هو استاذ فهمان ، جيد ، تصور هو الوحيد يدعو الطلاب الى بيته ، غداً الجمعة سيأخذنا في سيارته الى بصرى و . .

احس يوسف بشيء يحز في قلبه سأل نفسه « هل هي الغيرة ؟ » لكنها اجاب نفسه متعالياً « ماالداعي للغيرة . وماذا هناك بيني وبينها حتى اغار عليها تضرب ولتذهب حيث تشاء مع من تشاء » بينما كانت دلال تتابع بعد ان احست بوقع كلامها في نفس يوسف :

— وهل تتصور استاذاً عربياً يفعلها ، يدعونا الى الشاي في بيته ، يأخذنا في سيارته ليفرجنا على الاثار ، يعرف دمشق القديمة اكثر منا ، حتى نحـ . . . . .

— ويأتي هؤلاء المرشدون السياحيون لوجه الله ،

يأخذوننا بسياراتهم ويدعوننا الى بيوتهم الفاخرة ، لوجه التاريخ والحقير . .

احسن يوسف ان انفعاله فضحه ، وانه غير مسوغ ، خاصة لهجته المتوترة الساخرة ، ولهذا توقف في منتصف كلامه وغيّر ايقاع صوته ثم لجأ الى طريقته التقليدية في تغطية انسحابه بسخرية مرة وقال :

ـ أليس لي مكان معكم ، ام ان رحلتكم للانكليز فقط ؟

شعر انه يعود الى خبثه على الرغم من عدم رغبته ، قال في نفسه « اللعنة . . انا هكذا ! ومن الصعب أن أتغير » فكر بجواب آخر يبدو فيه لبقاً وغير متوتر ، لاحظ ان الام غير موجودة ، محاولاً تغيير الحديث سأل :

ـ اين ام محسن ؟

ـ ذهبت الى عند الجيران لتحضر علي . . تأخر

اجابت دلال بعد ان ادركت قصده

ـ وانا عندي موعد مع صديق . . تأخرت . . . الموعد في التاسعة

اهتبل يوسف فرصة الحديث عن تأخر علي ليجعله تكئة لانسحابه

— ابق لنتعشى

وجه الاب دعوة صادقة

— شكراً أخاف ان اتأخر على صديقي . . .

— زرنا الاسبوع القادم

قال الاب ، ثم اضاف مقترحاً ان يأتي يوسف الى دمشق كلما سنم ، فليس من الضروري الا يأتي الا الخميس ، بينما قالت دلال بلهجة المنتصر الواثق من سلاحه :

— تعال الخميس القادم ، سأعرفك على الاستاذ الانكليزي . . نلتقي الساعة الثالثة والنصف امام باب سينما الكندي نحضر الفلم ثم نذهب ونشرب القهوة في مكان ما.

سكتت ثم اكدت دعوتها بلهجة بين التحدي والسخرية :

— ننتظرك يا . . استاذ يوسف

زهـــــــير

— اين انت تأخرت . . . معلوم الذي يكون عند احبابه ينسى اصحابه . . والله انا مشتاق لك .

قال زهير القواسمي يرحب بصديقه ، كان يوسف يدرك صدق عواطف زهير تجاهه ومودته الصافية ، فزهير يعيش وحيداً منفصلا عن أهله الذين يسكنون في دمشق ، وقد تعرف اليه يوسف منذ كانا طالبين في الجامعة. وقتها كان يوسف يأتي الى الامتحانات فقط ، بينما يقضي الشتاء معلماً في ريف الجزيرة ، وزهير كان يعمل في القصر العدلي ، يدرس ويقرأ الروايات طامحاً ان يكون كاتباً روائياً في المستقبل ، وعندما اخفق تحول الى صحفي كسول في جريدة « تشرين » ، لكنه بقي يحتفظ من طموحات الروائي ومواهبه بدقة الملاحظة والبداهة ، وهما ماكان ينفقهما في الدس والتنكيت والاجابات المفاجئة .

ـ لم أتأخر . . اشتبكت في نقاش حام مع الانسة حول المرأة والانكليز و . . .

ـ يعني جيد أنك جئت ؟

كان يوسف قد حكى لزهير عن عائلة اقربائه ، وعن دلال ، التقط زهير الخيط وتابع :

ـ ياعتال قل انك كنت عند دلال ؛ . . لماذا انت خائف ؟

احس يوسف احساس ثعلب هو الذي أرشد الكلب الى جحره الآمن ، فوجد ان خير وسيلة للدفاع امام سخرية زهير هي الهجوم بالمثل :

ـ وهل تظن انني ذاهب لتقرير امور الحرب والسلم مع حضرة المساعد ؟

كان زهير يعرف يوسف جيداً،ومن جوابه الهجومي الساخر من نفسه ، ادرك ان صديقه مصمم على اخفاء عواطفه ، حتى عن نفسه .

حدد زهير نقطة الحديث في دلال وقال :

— وهل اقنعتها بأرائك اخيراً ، هل روضتها ، ام انها هي التي روضتك ، بالطبع ، لايهمني ماهي آراؤك وماهي ارؤاها ، يهمني من الذي اقنع الآخر . . . انا في هذه الاحوال اقتنع ، استسلم .

ادرك يوسف ان سؤال زهير يعني « هل وقعت في حبها ؟ » متابعاً طريقته في الاجابة ، ومحاولا اغاظة زهير عن طريق التباهي اجاب :

— وقد دعتني الى السينما

لم يدهش زهير ، وفي سبيل ان يقول يوسف الصدق لصديقه ، اجاب محاولا ان يعطي لهجته نكهة ساخرة :

— لكن معها استاذها . . .

صمت فترة ثم تابع :

— الانكليزي

هذه المرة دهش زهير وأجاب :

— انكليزي ، استاذها الانكليزي

— استاذ مادة الدراما . . . حدثتك ماحدثتني عنه

المرة الماضية . انه يدعو طلابه الى النزهات والبيت و ...
اخذ زهير طرف الحديث وقال :

ـ الى المقاصف والمطاعم وبعد ذلك الى البيت .
وفي البيت الى . . .

قاطعه يوسف :

ـ انت تظل نواياك في الناس . . . .

ضحك زهير وتابع :

ـ والله انت الخبيث ، اعرفك ، انت قلت لي عن الاستاذ الانكليزي انه يدعو طلابه وطالباته الى البيت لانك تعرفني وتعرف كيف أفكر ، انت تريديني انا ان اقول مابنفسك أنت ، لانك لاتريد ، لاتجرؤ على قوله لانه يمسك ، انت تريد ان أتشكك بذهاب دلال الى بيته ، لانك متشكك ؛ وتريدني ان اعبر عن تشككك . . اسمع سأشرح لك نظريتي حول البنات اللواتي يذهبن مع الاجانب ، اريد ان اسألك هل تعنيك دلال ؟

اسرع زهير الجواب قائلاً :

– لا . . لا . . لاتهمني بشكل شخصي

– كذاب ... انت تقول «لا» بطريقة افهم منها «نعم»، بدأت تتحدث كالفتيات ياصديقي ، انت بدأت تحبها ولكنك تخفي ذلك عن نفسك ، لانك لاتجرؤ على مصارحتها..انت لاتحبها تماماً لكنك بدأت تقع ، انت ...

– خلصنا واشرح لنا نظريتك

قاطع يوسف ، فاجاب زهير :

– على مهلك يجب ان نشرب اولا . . انتظرك كل خميس لنشرب ، والله مشتاق لك ، ادعوك للعشاء في الفاندوم . . انت آت من الريف ويجب ان تتمتع ، يجب ان ارفه عنك،سأدلك على الاماكن التي ستأتي اليها مع دلال قريباً .

– هل تظنني اتياً من وراء البقر الى بيتك ياحضرة ال

– استغفر الله يااستاذ ، ولكنني شامي ، ومهما بلغت خبرتك في هذا الموضوع فانا اكثر خبرة بالوراثة . . تفضل . . تفضل . . اعصابك متوترة هذه الايام . . نقودي كثيرة . . سنشرب نبيذاً فرنسياً . . تمتع يا . .

قاطعه يوسف وكأنه يريد لاواعياً الاستمرار في الحديث السابق ، لانه تأكد ان زهير سيشير بطرف خفي الى دلال :

– لماذا لم تحدثني عن نظريتك من قبل ؟

– للحب وقت . . وللموت وقت ، كما يقول ريمارك . . لكل حديث وقت كما اقول انا. احدثك عنهـــا في الطريـــق ، امش ، امش لاتخـــف . سنعود الى البيت لننام ، صرت اكره البقاء في البيت ، ياسيدي سأحدثك، آمل الا تؤاخذني بشأن قريبتك . .حديثها عن الاستـــاذ الانكليزي ذكرني بنظريـــة لصديق لي ، أقول انها نظريتي لانني مقتنع بها . . اسمع ولاتعتبر الحديث موجهاً ضد احد او باتجاه احد ، فما كل . .

– الا تشعر ان مقدماتك طويلة على غير العادة ؟

سأل يوسف حاثاً زهير على الدخول في الموضوع مباشرة بعد ان احس شيئاً من التحرج لديه .

– طيب . . . طيب . النظرية طريفة تقول بأن هناك ثلاثة أنواع من البغايا ،فأولا هناك بغايا البروليتاريا ،

وهن ارخص انواع البغايا واشرفها، انهن يلبين حاجة اجتماعية في هذا المجتمع التافه ويعشن بعرق جبينهن ، وكد فروجهن ، وهناك ثانياً بغايا المثقفين ، وهن اللواتي يتعاملن مع وسطنا الثقافي تحت اسم الكلام في الثقافة والسياسة والحرية ، وهن احقر الانواع ، ويكلفن نقوداً اكثر من النوع الاول ، انهن مجموعة من الفتيات والنساء كن جيدات في يوم ما لكن جوعهن للنجومية وقلة عقلهن اضاعتهن ، انهن النساء اللواتي يتبادلهن الكتاب والصحفيون والسينمائيون والفنانون ، يتأوهن عندالغناء، ويتجمعن امام اللوحات ، تراهن في الافلام والمهرجانات والمقاهي ، قلت لك هذا احقر الانواع ، لاهذا اضعف الانواع واحقها بالشفقة و . . .

— ماشاء الله على قلبك الرحيم

تجاهل زهير ملاحظة يوسف الساخرة وتابع :

— ثم هناك النوع الثالث ، وهو الذي يعنينا ، وهو الذي فتح الموضوع وذكرني به : النوع الثالث ياسيدي هو بغايا الجاليات الاجنبية فهذا النو . . . .

أحس يوسف ان سكيناً انغرزت في قلبه ، وفكر ان زهير مايزال متأثراً بتجربته مع ليلى ، تلك الفتاة التي احبها حقاً ، واراد ان يتزوجها في العام الماضي ، لكنها تزوجت صحفياً فرنسياً. حاول ان يضبط رد فعله لانه يعرف ذكاء زهير وانه سيحسن فهم اي تغيير في لهجته ، وحتى تعبيرات وجهه ، بينما كان زهير يتابع :

ـ وهذا النوع هو اخطر الانواع ، هذه بيئة الجواسيس والمدعيات والانانيات والطواويس وكل من فقد قلبها القدرة على الحب الحقيقي . . .

ثم انعطف زهير بالحديث وجهه أخرى وهو يتابع :

ـ يايوسف ، ياأخي ، انت تعرف كم احبك واحترمك . . اسمعني ، انا لست اذكى منك ، واكره دور المعلم ولكني اعرف هذه المدينة اكثر منك ولهذا، ولهذا انا صريح معك ، اعرف إن صراحتي جارحة . .

ـ مثل كل صراحة

علق يوسف .

ـ نعم مثل كل حقيقة . . . يايوسف لاتؤاخذني

أخشى ان تكون قريبتك من النوع الثالث أو في طريقها.. يوسف لاتتورط ، . . . يوسف هذه الفتاة ليست من دمشق وليست من ضيعتكم . . هي في اعماقها متخلفة . . ضائعة هي . .

دافع يوسف منفعلا ، وكاشفاً توتره الداخلي الكظيم :

— لا . . لا لم اتورط . . . مجرد معرفة عادية . . لن اتورط .

بهدوء تابع زهير :

— لاتتعنتر ، انك تكشف نفسك اكثر . . تستطيع ان تكذب على نفسك ، لكنك لاتستطيع ان تكذب علي . . انت بدأت تتورط في حب هذه الفتاة . .

ومراعاة لمشاعر يوسف اضاف زهير :

— قد اكون مخطئاً في شكوكي . . ربما هي جيدة . . لكن انتبه . . من يدري يايوسف ، ربما خيباتي المتكررة في النساء هي التي جعلت ظنوني فيهن سيئة . .

ادرك يوسف ان زهير يتذكر ليلى في هذه اللحظة ،

ادرك ذلك من لهجة الاسى . فكر ان يسأله عن ليلى لكنه اقترح :

ـ طالما ستأتي مع رفيقاتها والاستاذ الانكليزي الى السينما يوم الخميس القادم . فما رأيك ان تأتي انت معي ؟

تأكد زهير ان يوسف يبحث عن حماية ،عن امان، احس ان ذهابه سيكون نوعاً من التضامن والحماية اكثر من رغبة في حضور السينما ، فقد تأكد ان تماسك يوسف الداخلي بدأ يتفتت . كانا قد وصلا الى باب الفاندوم ، دون ان يسأل عن الفلم،وبعد ان جلسا على الطاولة قال :

ـ أذهب معك . . غيّـــر لنا هـــذا الحديث ، ما آخر الاخبار هل ستقوم الحرب ام لا ؟ اشرب النبيذ ياشيخ . . . يلعن دين الدنيا كلها . . اشرب والله مشتاق لك .

زهـــــير

خرجا من مطعم الفاندوم بعد ان شرب كل منهما زجاجة نبيذ فرنسي ، اعترت يوسف كآبة عميقة ، احس رغبة في ان يبقى وحيداً ، فكر بطريقة للاعتذار عن المبيت عند زهير ، لكن ماذا سيظن زهير ؟ سيكون الاعتذار مفاجئاً ، فمنذ عامين ويوسف ينام عند زهير ، بل يكاد يكون له غرفة خاصة فيها بعض ألبسته وكتبه ، لم يجد يوسف خيراً من قول الحقيقة مباشرة :

ـــ زهير انت تفهمني ... يازهير اعتذر عن العودة معك . . لدي رغبة في ان ابقى وحيداً ، ان امشي في الشوارع وحدي .

فوجيء زهير ، فكر للوهلة الاولى ان يوسف قد زعل من الحديث عن دلال بهذه الطريقة ، ثم استبعد فكرة الزعل لانه يعرف ان يوسف يثق به ، قال في نفسه

لابد ان النبيذ فعل فعله ، لكن يوسف لايتأثر بمثل هذه الكمية ، وليست هي المرة الاولى التي يشربان فيها معاً ، قال متحبباً :

ـ امش . . بلا فلسفة . .لن اسقيك خمراً بعد اليوم . . أنت متعود على الا ....

فكر يوسف ان زهير يداريه لانه يظنه سكران ، احس بحب غامر لزهير ممزوج بالاسى فأصر قائلاً :

ـ زهير . . قد اعود بعد ساعة الى البيت اذا تحسنت حالتي النفسية . . اريد ان ابقى مع نفسي بعض الوقت .

التمعت في ذهن زهير فكرة ان يوسف يفكربدلال ، ان سهومه وشروده اثناء نقاشهما السياسي في المطعم ، انما كانلانه يفكر بموضوع اخر ، يفكر بدلال ، قال في في نفسه بأنه كان يجب الا يمزح في موضوع نظرية البغاء « جرحت يوسف حتماً ماكنت اظن انه سريع الوقوع في الحب هكذا » علل زهير الامر بان شبان الريف عاطفيون وصادقون في عواطفهم مهما بدوا عقلانيين ولهذا يقعون في الحب سريعاً دون ان يحسنوا اخفاءه

حتى ينضج ، وجد أن من الافضل ان يترك يوسف لما يريد . .

— هل هناك من داع لان اقول لك البيت بيتك . . تذهب وتعود متى شئت . . المفتاح معك .

قال زهير بلهجة يمتزج فيها الود بالشفقة ، وسار باتجاه بيته في المزرعة يتذكر حالة حب مشابهة مربها ، فكأن يوسف قد نكأ جرحه وذكره بحالته ، كأن يوسف لمس جرحاً يظن زهير انه شفي منه ، احس بحاجة لان يكون يوسف معه ، وتمنى لو كان استطاع اقناعه بالبقاء معاً ليحدثه عن ليلى مرة أخرى ، عادت ليلى تسكن مخيلته ، وصل بداية طريق الصالحية وكان يسأل نفسه لماذا لم يتزوج ليلى ؟ لماذا تركها تتزوج فرنسياً وتذهب معه الى فرنسا ؟ تذكر انه حاول ان يبدو امامها غير مبال بها وبعواطفه ، وهي حاولت ان تلعب لعبته نفسها ، ان تفهمه انها غير مبالية به ، وبكل حياتها في سورية ، وانها ستتزوج فرنسياً لان الحياة في الشام لاتطاق . الان يدرك انه احبها ويحبها وسيظل يحبها ، والان يتأكد زهير

انها كانت تحبه وأنها ما تزال تحبه وانهاماذهبت مع الفرنسي الا هرباً منه، هرباً من ان تنفجر في وجهه ذات يوم وتصرخ :

أنا احبك ، انت لئيم تتبـــارد علي حتى تذلني لا . . لا لن اعطيك هذه الفرصة . . سأذلك أنا . . سأجعلك تفقدني الى الابد . . من تظن نفسك ؟ تذكر كيف كان يناديها مازحاً : ياابنـــة الحرام ، وكيف كانت تجيبه : نعم ياحضرة اللئيم المحترم ، حتى وهما يقبلان بعضهما بعضاً ، تذكر كم كانت تود يوسف وتحكي له عن حبها له هو ، بينما كان هو يحدث يوسف الحديث نفسه ، تذكر اصطناعه واصطناعهـــا مصادفـــات اللقاء . كان قـــد وصل الى قرب حديقـــة « الجاحظ » بعد ان قرر عدم الذهاب الى البيت والسير وحيداً كيوسف في الشوارع ؛ مر امام مقصف « الدار » فتذكر انه المكان الذي كان يواعد ليلى فيه. مازح نفسه قائلا بانه اتى لاواعياً ليقف على الاطلال ، تذكر يوسف وسأل نفسه : « اين ذهب ياترى ؟ » قال في نفسه ان يوسف يحب دلال لامحالة ، وانه انزعج من التلميح الى بغايا الجاليات الاجنبية ، فكر ان الذي يحب امراة يريدان يصونها حتى عن الظنون السيئة ،

قال في نفسه : سأتعرف الاسبوع القادم على هذه الدلال .
دخل مقصف الدار وكان خالياً . طلب فنجان قهوة ، تمنى لو كانت ليلى موجودة، تمنى لو كان يوسف معه تمنى لو كانت هناك امرأة يحبها وتشرب معه فنجان قهوة الآن . تذكر الفتيات اللواتي يعرفهن قال في نفسه لكنهن من النوع الثاني ، من بغايا المثقفين ، فكر بعلاقاته المتشابكة والكثيرة وكم من السهل ان يكون مع واحدة ممن يعرف الآن ، تذكر فاتن ، جاكلين ، هناء ، ريم ، أحس بشيء كطعم الرماد في حلقه . طلب زجاجة نبيذ . عادت ليلى تسيطر على مخيلته . تذكر دعوتها له للذهاب الى فرنسا والاقامة اسبوعين في بيتها مع زوجها جان كلود كريستيان، تذكر آخر زيارة لها الى دمشق وحديثها عن مدى سعادتها مع جان كلود ، وكيف احس وقتها انها كانت تغيظه بالحديث عن السعادة ، كان يعرف انها شقية في حياتها الباريسية ، قال في نفسه : كانت من المرات القليلة التي تخليت فيها عن لؤمي معها وادعيت تصديقها حتى لاأجرحها ، تمنيت لها السعادة صادقاً على الرغم من معرفتي باستحالة سعادتها . كان زهير يعرف ان ليلى تكذب عليه

حتى لايشمت بها وكان يعرف انها تفكر بالطلاق ، لكنها لاتجرؤ على إعلان اخفاقها امامه على الاقل . شرب رشفة القهوة الاخيرة أحس بالنعاس .

وقام ومشى عائداً باتجاه البيت يتملى جمال شوارع دمشق اواخر الليل. احس بحب غامر لهذه الشوارع. سار متمهلا قطف غصن ياسمين شمه ، تذكر مسيره مع ليلي في هذه الشوارع وكيف كانت تقطف الياسمين وتعطيه اياه مازحة : خذ مع انك لاتستحق ، ثم تستدرك : لاتصدق انت تستحق الياسمين واكثر . تمنى في نفسه ان يصادف يوسف ، كان يعرف ان يوسف يمشي الان في الشوارع مثله . عاودته رغبة الحديث عن ليلى وتذكر نظريته عن أنواع البغاء الثلاثة وقال لنفسه: انا ثرثار وربما حاقد . برقت في ذهنه فكرة ان يوسف ظن انه يشير الى ليلى وزواجها من الفرنسي عندما حدثه عن البغاء الثلاثي . ولكن يوسف لم يجابهه برأيه احتراماً لمشاعره ، تمنى مرة ثانية ان يجد يوسف ويقول له انه مايزال يحب ليلى . تمنى ان يصل الى البيت ويجد يوسف وقد سبقه . قال في نفسه : هاهو يوسف يبدأ

القصة التي أنهيتها منذ عام.همس في نفسه : لاأحد يستطيع ان يساعد احداً في مثل هذه الموضوعات وعلى كل انسان ان يقتلع شوك يديه بيديه ، تذكر كم كان يوسف ينصحه ويواسيه ، وان ذلك لم يجد شيئاً . فكر مرة أخرى ان لاأحد يستطيع ان يعلم احداً في هذه الحياة . وصل البيت لكنه لم يجد يوسف كما تمنى وتوقع . مازح نفسه مخاطباً يوسف بصوت عال وكأنه يقف أمامه :

— ياصديقي . . . ستظل تدور في الشوارع حتى الصباح . وبعدها تشرب فنجان قهوة في الروضة .

وكممثل كوميدي يستعمل الفصحى لاضحاك الجمهور ، رافعاً درجة صوته ليخاطب زميله الذي ماانفك يخاتله ، لكنه امسكه في الفخ هذه المرة ، خاطب زهير خيال يوسف وهو يطفيء الضوء لينام قائلاً :

— لااقال الله عثرتك . . ياجابر عثرات الكرام

فـــوزيـــة

فوزية الصباغ امرأة في السادسة والعشرين ، احبت زميلاً لها في قسم اللغة الانكليزية منذ الصف الاول . كانت قصة حب عاصفة وفاضحة انتهت بزواج مفاجيء في الصف الثاني ، ذلك ان سامي كان من طائفة اخرى ، وفي نهاية العام الدراسي الثالث كانت قد اصبحت امرأة مطلقة وعندها طفل يعيش معها . اوقفت تسجيلها ثلاثة اعوام وانهمكت في اعطاء الدروس وفي تربية طفلها الى ان عادت هذا العام الى الصف الثالث لاستكمال بعض المواد ، وهناك ذات درس مسائي تعرفت على دلال المحمد ، وبعد لقاءين او ثلاثة ، كانتا قد اصبحتا صديقتين ، وبعدها أعلمت دلال بوجود ساعات للتدريس في اعدادية داريا وزكتها في المدرسة . كانت فوزية امرأة مخيبة تحول حبها العاصف والسابق لسامي الى احتقار عام للرجال مشوب بالحنين الى رجل ما .

تعيش فوزية مع والدتها المطلقة وطفلها رائد ، وتقول لدلال ان لعنة الطلاق تلاحق عائلتها ، وتتعامل مع امها كما تتعامل سيدتان متكوبتان متضامنتان ، سيدتان خانهما الدهر والرجال ، لكنهما باقيتـــان بانتظار شيء ما ، رجل ما ، حدث ما ، ولهذا تكثران من التبصير بالقهوة ، وتفسير الاحلام ، واحياناً ولشدة شعورهما بالفراغ تقيمان الحفلات وسهرات الرقص ومآدب الغداء على ذلك تخفف عنهما بعض الوحشة ، انهما تدعوان اصدقاءهما وصديقاتهما المقربين ، اصدقاء الام — فايزة — واصدقاء فوزية ، وتوزعان مودتهما بشكل متساو على جميع الحضور ، وبين حين وآخر تسربان كلمة احتقار للرجال وللرجل الشرقي خاصة ، لكنهما تواظبان على اقامة الحفلات والدعوات ، واستقبال الاصدقاء ورؤية الرجال في فناجين القهوة والاحلام ، انهما تواصلان الشوق لذلك الامل الذي تظنانه مات ، ذلك الامل الذي أغلقتا عليه الباب وتأبيان ان تفتحاه الا مواربا . بينما الشباب الذين يسهرون عندهم يرون الباب المقفل ، مشرعاً ، ومع

ذلك فنوعية الرجال والاسر التي تدعي الى بيت فايزة هي من النوع الذي لايفكر باستغلال وحدة امرأتين مطلقتين . لقد حافظت هاتان المرأتان الوحيدتان ، على علاقات صافية مع اناس محترمين . مثلما حافظتا على هذا الشوق الدفين للرجال .

الى هذه الاجواء دخلت دلال ، ومع الايام صارت تحس بمودة تجاه الام ؛ بل وبدأت تجد فيها ذلك الشيء النسائي الشرقي الذي تخفيه في نفسها تحت قناع ثقافتها وتحررها . كانت في الماضي تسخر من التبصير في فناجين القهوة وتفسير المنامات ، وهاهي الآن تأتي بين حين وآخر مدعية انها اشتاقت لرائد ، او لفايزة ، او انها كانت تعبر في الحي وهي في الواقع آتية لتشرب القهوة ولتبصر في هواجسها لدى الست فايزة ، ومع الايام بدأت تروى احلامها للام ، لكنها بقيت في حضور يوسف او اصدقائها وزملائها تهاجم التبصير وتفسير الاحلام ، وتسخر من هذه التفاهات الشرقية كما تصفها ، وهاهي اليوم تزور الست فايزة لتقص عليها حلماً رأته الليلة الفائتة

دخلت دلال دون موعد فلم تجد فوزية . . . ادعت انها كانت مارة في الحي فاحست بشوق لزيارة الست فايزة ورائد . لكن فايزة كانت قد بدأت تفهم بخبرتها حالة امثال دلال . لقد ادركت فور دخولها ومن مدخلها للحديث : انها آتية لتشاورها ولتروي احلامها ، وبماذا تحلم الفتيات في عمر دلال ، وعن ماذا يبحثن في فناجين القهوة ؟ فايزة تعرف الامر جداً .

ـ اهلا وسهلا يادلال . . . انا احبك مثل فوزية . . الا تزورينا ان لم تكوني مارة في الحي ؟

قالت فايزة مدعية العتب ، لكن رنة صوتها كانت تشي بانها فهمت ان ضيفتها اتت عامدة ، اما دلال فقد ادركت ان فايزة كشفتها ، وانها تشكك في صدق ادعائها .

ـ لا . . لا . . انا آتي خصيصاً . . ولو ؟

اجابت دلال

ـ اهلا وسهلا بك . . البيت بيتك . . وانا مثل املك

قالت فايزة لتعيد جو الثقة والامان الى دلال . . ثم بادرت :

ـ سأسقيك قهوة . .

وحتى لاتحرج دلال ، اذ اصبحت تعرفها ، وتعرف انها تريد منها ان تبصر لها ، بينما هي تبدي عدم رغبتها بل واستنكارها تابعت :

ـ سأقرأ لك الفنجان

ثم لتلغي جو الكلفة ولتدخل الموضوع مباشرة ، اضافت ضاحكة :

ـ فربما نجد لك عريساً

مازحة اجابت دلال :

ـ الشبان عميان هذه الايام . . . متى يجدني اعمى القلب مفتح الـ ..

قاطعتها فايزة :

ـ بسلامتك ياامورة . . انت جميلة . . أين نجد لك مفتح العينين والقلب ، لكن الرجال . . .

سمعتا صوت مفتاح يولج في الباب . دخلت فوزية ومعها طفلها رائد . ركضت دلال وحملته ، قبلته ، داعبته ، تلهت به عن العتاب على التأخر بين فوزيةوامها ، اخرجت بعض السكاكر منحقيبتها واعطتها لرائد :

— حبيبي رائد . . . ألا تذهب معي الى البيت ؟

— يالله . . امش

كان واضحا ان الطفل ذا السنوات الثلاث يريد ان يبقى خارج البيت ، وان الساعة التي قضاها في الحديقة العامة مع امه لم تكفه .

— اقعد . . اسكت .

نهرته الام ، اما دلال فقد علقت ساخرة عن نفسها :

— مثلي ، لايحب البقاء في البيت . . . غداً سآخذه انا الى الحديقة . .

— إغلي لنا فنجان قهوة يافوزية . . . . رائد تعال الى عندي

قالت فايزة وهي تلتفت الى رائد ، ثم اضافت :

— لو يبقى الاطفال اطفالا . . . ماألطف الرجال عندما يكونون صغاراً . عندما يكبرون يفسدون ، وخاصة اا : : ؟

— وخاصة بعد ان يتزوجوا

قاطعت دلال ضاربة على وتر تعرف انه حساس عند فايزة وفوزية، ومحاولة اظهار استقلال شخصيتهاعن أمها قالت فوزية :

— لا . . بعضهم ظريف وحباب . . .

وغامزة من طرف دلال اضافت :

— الدكتور مورتون وايت رجل . . . وحباب . . . سأذهب واعمل القهوة .

شربن القهوة وتحدثن عن سهرة الاسبوع الماضي في بيت فايزة ، حيث دعت فوزية مورتون وايت وحضر ، قالت فوزية لدلال :

— البيت بيتك اذا كان بيتك ضيقاً فبامكانك ان تعتبري هذا البيت بيتك . ... هاتي فنجانك . . ام انك لا تريدين ان ارى فنجانك ؟

قالت فايزة لتكشف النوايا الحقيقية لدلال ، وربما لتجبرها على ان تصرح برغبتها .

ـ كما تريدين

اجابت دلال تاركة الامر معلقاً كشأنها دائماً عندما يكاد المتحدث ان يضبط نواياها الحقيقية .

ـ لا...هي تريد . . رائد تعال الى هنا '

تدخلت فوزية مشجعة دلال

ـ هاتي الفنجان اذن

مدت دلال الفنجان بيد لاحظت فايزة ارتعاشها ، حدقت فايزة في الفنجان قلبته . ادارته . مرت دقيقة صمت ثقيلة ، لم تعرف دلال كيف خرج الكلام من شفتيها سابقة فايزة في الكلام ، فقالت :

ـ ست فايزة .... لقد رأيت حلماً غريباً

ادركت فايزة ان صبر دلال قد نفذ ، وان كل تماسكها الخارجي قد انهار فقررت ان تتركها تتكلم .

طالت دقيقة صمت اخرى . فاضطرت دلال أن تمضي بكلام بدأته :

— رأيت شخصاً ... لا ... لا ....يجب...انااقول الحقيقة يجب الا اخفي عنك شيئاً ، رأيت استاذنا . . .

والتفت الى فوزية لترى وقع الكلام عليها ، ثم ادارت نظرها الى الجدار كمن يهرب من عيون الآخرين وتابعت :

— الدكتور . . . الدكتور مورتون وايت . . رأيته يعانقني يقبلني وانامستسلمة...وفجأةدفعته عني . . وصرخت : اذهب . . اتركني ياحقير ، كان يبتسم ، رأيت نفسي اهجم عليه واعانقه ثم ادفعه عني واصرخ مرةاخرى : ياحقير ، وعندها استيقظت ، غريب انا لاأحس تجاهه بأية مشاعر خاصة . . احترمه كاستاذ ، وكرجل فهيم ومتحرر حقاً . . متقدم .

وكأنها امسكت نفسها مسترسلة في مديح الدكتور وفي أخذ الموضوع مأخذ الجد ، بدلت منحي كلامها نحو السخرية :

— احلام سخيفة

ثم مستجدية تأكيدات هي غير مقتنعة بها أضافت :

ـ أليس كذلك ؟

لم تجب فايزة بشكل مباشر بل قالت :

ـ سنرى ماذا يقول الفنجان . . .

• • •

ليلى

بعد ظهر الخميس كان زهير القواسمي ينتظر يوسف في البيت ، وعندما رن جرس الهاتف كان متأكداً ان المتحدث هو يوسف ، لكن المتحدث كان ليلى ، ظنها في البداية تتحدث من باريس لتطلب اليه ، على عادتها ، تعقب بعض معاملاتها ، أو ارسال بعض الحوائج ، لكنها سألته فيما اذا كان جاهزاً لاستقبالها. ارتبك زهير في البداية ؛ فليس الامر مجرد موعد للذهاب مع يوسف الى السينما بل هو يشعر بحاجة يوسف اليه هذه المرة ، وكانت لديه هو رغبة دفينة في التعرف الى دلال ومورتون وايت ، ربما ليتأكد من صدق نظريته . تذكر أنه من اللباقة ان يسألها عن جان كلود ، فقالت انه سيأتي معها ، وانه هو صاحب مشروع المجيء ، احس انها تريد ان تشعره انها سعيدة ، وانها تريد ان تحسن علاقته بزوجها ، قالت انهما سيبقيان اسبوعاً في دمشق ، تذكر

عمل جان كلود الصحفي ، وانه دائماً يظهر في اوقات التوتر في المنطقة ، داعبها مذكراً اياها بأحاديث سابقة وهو يقول أن من الطبيعي ان يكون جان كلود على خط النار ، فهمت تلميحه واجابته بخبث : انت هو خط النار ياحضرة اللئيم المحترم. سالها ان كانت تستطيع تأجيل الزيارة حتى الغد لانه مشغول جداً بعد الظهر وربما في المساء ، قال لها : وكتعويض ادعوكما الى الغداء في دمر غداً الجمعة وسيكون معنا يوسف . سألت عن يوسف فأجابها يوسف مازال صامداً . ثم تذكر حالته واضاف : لكن دفاعاته بدأت تنهار . ودعها بعد ان اتفق معها على الغد ، وضع الهاتف وهو يتمتم «هؤلاء الصحفيون الجواسيس اتوا . . اتوا . .اذن الاحوال متوترة حقاً . ستقوم الحرب لامحالة ».

في الثالثة كان يوسف يقرع الجرس . منذ النظرة الاولى ادرك زهير مدى ارتباكه وقوة الجهود التي يبذلها لاظهار التماسك والظهور بالمظهر العادي . متجاهلاً موضوع دعوة السينما والوقت ، ومغيظا يوسف قال زهير :

— وقت بعد الظهر ثقيل.. اين يذهب المرء؟ ينام..يتسكع؟

التقط يوسف اشارة زهير واظهاره تجاهل الموعد فقرران يهاجم صديقه قبل ان يتابع ملعناته :

— او تذهب معي او مع اصدقائي الى سينما الكندي . . سنحضر ساكو وفانزيتي . امشي . . عيب ان ينتظرونا على الباب .

ابتسم زهير فهو يعرف ان يوسف يستطيع اظهار البرود مهما كان مضطرباً وقلقاً ، لكنه قرران يستمر في مداعبة صديقه :

— يوسف اتمنى اذ اذهب معك . . لكن ليلى هنا مع زوجها ، وقد اتصلت بي تق. . . .

— ليلى هنا ؟

تساءل يوسف مدهوشاً ، فتابع زهير :

— تعرف السينما موجودة ، والفلم عرض سابقاً وليلى ايامها معدودة في دمشق وستر و . . .

هذه المرة وقع يوسف في الحرج ؛ وجد أنه من الصغار ان يلح على زهير للذهاب معه وهو يعرف مشاعره تجاه

ليلى . لكنه كان يحس الان بحاجة ماسة لوجود زهير الى جانبه : فاختار صمت المحرج ، وادار وجهه للحائط حتى لايقرأ زهير فيه اي تعبير . وعندها ادرك زهير انه قد حشر يوسف في الزاوية وان هذا يكفي ، فقال :

ـ قم امش يا . . . ليلى تزوجت . . . ربما يكون مع دلال فتيات جميلات .

عرف يوسف ان زهير سيذهب . لكنه يلعب بأعصابه . فقرر ان يعيد الكرة الى مرمى زهير قال :

ـ لا . . اذا كانت ليلى هنا . . اذا كنت قد وعدتها فمن الافضل ان اذهب وحيداً .

كان يوسف متأكداً ان زهير لن يتخلى عنه . فهو يعلم مدى الحب الذي يكنه له . لكن بات يعرف طريقة زهير المداعبة والمتخابثة . تلك الطريقة التي اكتسبها من جو الجريدة . تطلع زهير في وجه يوسف ثم انفجر ضاحكاً :

ـ ولو ياشيخ ! ! انت افضل من احسن امرأة .

سكت ثم تابع ضاحكاً :

ـ من النوع الثالث بالطبع .

في الثالثة والنصف كانا على باب سينما الكندي بعد دقيقتين وقفت سيارة مملوءة . تعرف يوسف فيها الى دلال ، عرف ان السائق هو مورتون وايت . سارعت دلال بالتقديم وهي تضحك . لتشعر الاخرين انها انها تتكلف الرسمية :

ـ دكتور مرتون وايت ، السيدة فوزيةالصباغ ؛ الآنسة لميس المرادي، احمد عبد الستار ومروان المحايري.

التفتت الى يوسف وتابعت :

ـ الاستاذ يوسف . .

وسكتت تاركة ليوسف ان يقدم صديقه

ـ زهير . . .

انتبه يوسف الى ان الجو رسمي فأعاد :

ـ الاستاذ زهير القواسمي . . . صديقي

ـ لدي بطاقات كافية

قالت دلال وتقدمتهم الى الباب . حيث الرجل الذي يأخذ البطاقات ، وكأنها تريد ان توحي لمن معها انها تعرفه من كثرة ترددها على السينما . بينما كان يوسف يفكر بكيفية ترتيب الجلوس . واين ستجلس دلال ، الى جانب الانكليزي ام الى جانبه . اخيراً جلست بين لميس وفوزية بينما جلس الخمسةمتقاربين ،ففكرزهير الذي كان يفكر في موضوع يوسف نفسه بأنها حيلة ساذجة من فتاة غرة لاخفاء عواطفها تجاه شخص محدد . بينما فسر يوسف الامر على انه ارتباك او محاولة للظهور بمظهر الجدية والوقار الخارجي على الطريقة التي يعرفها في دلال .

مـورتـون وايت

خرج يوسف من الفلم دون يكون قد فهم شيئاً ؛ رأى صوراً متتابعة لم يستطع الربط بينها . فالتفكير مدة اسبوع بموضوع ملتبس . ووجوده مع دلال واشخاص آخرين احس بعدم الارتياح لهم . والتشكك في علاقة الاستاذيـــة بين دلال ومورتون وايت الذي لم يرتح لشكله وخاصة لحيته الشقراء : كل ذلك جعله متعباً يرى شيئاً بينما يكون مفكراً بأشياء اخرى . كان يؤنب نفسه على دخوله في اوساط احس انه تجاوزها منذ زمن ، وفقد الرغبة في التعامل معها . قرر أن يودع دلال على باب السينما ويذهب الى مطعم مع زهير ، ثم يحاولان الاتصال بليلى ودعوتها هي وجان كاود للعشاء ان امكن .

– اعتذر يا آنسة دلال . . . شكراً على هذه الدعوة .

قال محاولاً التخلص وموجهاً كلامه لدلال وحدها

معتبراً ان الاخرين لايعنونه . وربما اراد من طريقته هذه في الاعتذار وعدم الالتفات الى الاخرين . ان يفهم دلال انه لم يرتح لجوها واصدقائها وصديقاتها . وللدكتور الانكليزي خاصة .

— لا . . ثمة مفاجأة

قال مورتون وايت بعربية واضحة فيها تقليد متعمد للهجة المحلية . ثم سكت وتطلع الى دلال التي ابتسمت وهي تقول موجهة كلامها الى يوسف وزهير :

— ابقيا معنا

تابع مورتون وايت يقول :

— انتم مدعوون الى بيتي فثمة احتفال صغير . .

سكت وتطلع مبتسما الى دلال ثم سألها :

— الا يعرفان المناسبة ؟

— لا.. لم اقل لهم

اجابت دلال وهي تضحك . . ثم اوضحت :

— ليست من عادتي . . لكن الدكتور اصر على

الاحتفال عندما عرف . . اصر على حفلة شاي على الطريقة الانكليزية . . .

جذب مورتون وايت الحديث ناحيته وقال :

ـ دلال خجول كأي فتاة في بلادكم . . تخجل ان تقول ان اليوم هو عيد ميلادها . . . تفضلوا الى السيارة.

حاول يوسف الرفض وتطلع الى زهير . رآه منهمكاً في الضحك مع فوزية فعرف انه سيرحب بالذهاب والسهر مع هاته الفتيات دون ان يهتم لعيد الميلاد او لشخصية مورتون وايت . كانت اللباقة تقتضي عدم الرفض. تأدباً قال يوسف :

ـ يجب ان أسأل صديقي . . . زهير ما رأيك ؟

ـ بماذا ؟

اجاب زهير ضاحكاً . فتمتم يوسف في نفسه «العرص يعرف الموضوع لكنه يتجاهل » تماسك يوسف وقال :

ـ اليوم عيد ميلاد الانسة دلال

ارد يوسف ان يكمل . «وهي تدعونا لعيد ميلادها» لكن دافعا خبيثاً جعله يقول :

– والدكتور مورتون يدعونا للاحتفال في بيته .

ادركت دلال ان يوسف اطلق حانقاً احد سهامه . لكنها تجاهلت وتشاغلت بالهمس في اذن لميس المرادي بينما بقي الطالبان الاخران ينتظران دون كلام ، توجهت دلال الى فوزية سائلة :

– هل اخبرت امك ألا تقلق عليك اذا تأخرت ؟

كان صوت زهير يقرقع :

– انا جاهز لكل الاحتفالات ، وفي كل الامكنة .

– بقيت مشكلة التحرك . .

قالت دلال

– المكان قريب في ابي رمانة ، دبروا انفسكم ..

قال مورتون وايت بينما كانت الجماعة تتجه صوب السيارة . لاحظ يوسف ان دلال توجهت الى الباب

الامامي وفتحته بحركة تشي بتعودها وبحقها في الجلوس في المقعد الامامي قرب مورتون وايت. وعندما وصلوا الى البيت ووقفت السيارة قال مورتون وايت :

- اسبقوني الى البيت. نسيت ان احضر غرضاً صغيراً سأحضره . . . دلال خذي المفتاح .

دخلوا البيت تتقدمهم دلال . كان يوسف محتاراً من صمت الشابين الاخرين وخجلهما، بينما كان زهير يقول لنفسه « طالبان غران اتوا بهما للتغطية، لكن فوزية جميلة» اما لميس المرادي فقد كانت تحاول تبادل كلمات متفرقة مع يوسف الذي كان يراقب حركات دلال في البيت. لاحظ ان دلال تعرف البيت جيداً كما لاحظ ان المائدة محضرة سلفاً ، وان ثمة اكثر من الشاي . كان هناك مأكولات شرقية تأكد ان دلال هي التي اعدتها . ازداد تأكده عندما رأى على المائدة الشنكليس والتبولة . فتحت دلال البراد واحضرت بعض المرتدلا والفواكه ، بينما كانت عينا زهير ويوسف تلتقيان في النظر الى صحن الشنكليش .

دخل مورتون وايت حاملا قالب كاتو مكتوباً عليه

ميلاد سعيد ..ورقم ثلاثة وعشرين ، كان معه ايضاً زجاجة شمبانيا . همس زهير في اذن يوسف :

— دعينا للشاي ام للشمبانيا ؟

تحركت السخرية السوداء في نفس يوسف فأجاب هامساً :

— سمعنا ضعيف . . كبرنا . . ماعدنا نميز

همس زهير مكملاً السخرية :

— لا . . انت متخلف لاتميز الفر . .

انتبهت دلال الى التهامس . وادركت انها المعنية حتماً . فقالت :

— الاحاديث الخاصة ممنوعة . . . غيروا اماكنكم من فضلكم :

بدأ زهير يشعر انه يشاهدمسرحية،ولهذا قرر في نفسه ان ينخرط فيها ، اقترب بفمه من اذن يوسف وهمس ساخراً مرة اخرى :

— وماذا عن اللمس ، اذا كان ممنوعاً فسوف اخرج انا . . .

لم يتم همسه فقد انتبه الى نظرات دلال الغاضبة . ابتعد عن زهير وقال محاولاً الاعتذار .

— عفواً ياآنسة . . تذكرت موضوعاً مهماً كان يجب ان اقوله وخفت ان انساه

— لو كان هاماً فلن تنساه . . ماكنت نسيته .

اجابت دلال وكأنها تريد ان تفهمه انها لم تصدقه . حول زهير نظره الى الطالبين . كانا مايزالان جالسين في صمت . تابعت دلال كلامها :

— قلنا غيروا اماكنكم .

قام زهير وقعد قرب فوزية . بينما كان مورتون وايت يدور بكؤوس الوسكي والنبيذ . وبعد ان اخذ كل واحد كأسه قال مورتون وايت :

— والآن تفضلوا . . في صحة الانسة دلال .

بحركة مسرحية وقف زهير مجبراً الاخرين على الوقوف ، بينما كان يوسف مايزال يلوم نفسه في سره على قبول دعوة السينما ثم الدعوة الى هذا البيت . ويفتش في ذهنه عن طريقة لبقة للاعتذار والخروج . شربوا في صحة دلال .

وعادوا للقعود بينما كان زهير يتطلع حواليه متفرجاً على محتويات البيت الفاخرة وترتيبه الانيق . . . . .

نظر يوسف الى زهير ليتفق معه بالنظر على المغادرة. كان زهير قد انهمك في حديث ضاحك مع فوزية بينما دلال تتهامس مع ليس المرادي خارقة الحظر الذي فرضته على الهمس ، قوي احساس يوسف بأنه زائد ، فنظر الى زهير الذي كان يكتب في دفتر عناوين فوزية شيئاً ، فعرف يوسف انه رقم هاتفه ، ناداه :

— زهير . .

التفت زهير وضم كفه ثم رفعها وبعدها خفضها ثم رفعها بمعنى : انتظر علقت السمكة ، لكن يوسف ماعاد يستطيع الانتظار . بدأ يشعر ان كل لحظة يبقاها ستجعله يخسر شيئاً ما . تحرك باتجاه زهير ودعاه مباشرة للرحيل . نظر زهير في عيني يوسف فأدرك كمداً كان قوياً لدرجة ماعاد معها زهير يستطيع الرد . التفت الى فوزية وقال : اتصلي . ثم قرر ان يأخذ المبادرة من يوسف ليساعده . توجه الى دلال وقال ضاحكاً :

ـ عيد ميلاد سعيد ياآنسة . . اشكر يوسف الذي عرفني عليك . . نحن مشغولون . . مرتبطون في موعد هذا المساء . . كان يجب ان تخبرونا ابكر . . كل عام وأنت بخير .

فوجئت دلال وارتبكت . احست انها فقدت شيئاً لاتعرف ماهو . شيء كالجدار الذي تستند اليه، كالمظلة، احست ان خروج يوسف سيضعها موضع الشبهة . حاولت التمسك بهما، لكنهما رفضا . تدخل مورتون وايت مظهراً المودة ، لكن يوسف الذي ماعاد يستطيع التحمل اكثر كان مصمماً على المغادرة .

زهـــــير

– اضحكني هذا الاحمد عبد الستار . وهذا ما اسمه . . محايري . . كانا مثل لعبتين

قال زهير راغباً في الحديث حول السهرة في بيت مورتون وايت ، لكن يوسف الذي بدأ يستعيد تماسكه اجاب ضاحكا :

– وابهجتك اكثر عجيرة السيدة فوزية . . . يا أزعر

– والذي اعجبني واضحكني اكثر اكثر ارتباك حضرتك كأنك مراهق في الخامسة عشرة . . مجنون . لماذا لم تبـــق ؟ . اذا لم يكن من اجل دلال فمن اجل لميس المرادي . . هي فتاة جميلة ومهذبة . . كنا بقينا . . تعشينا . . وسهرنا ، و . .

كان يوسف يعرف ان زهير لا يحب هذه الاجواء . لكنه يستدرجه للحديث عن دلال . فقد لمح في عيني صديقه نوعاً من

من اللوم لانه بدا غير متماسك وانسحب . وحتى يقطع الطريق عليه اجاب :

ـ معك حق

ـ ثم قال في نفسه « يجب ان احكي بصراحة مع زهير »

ـ زهير . . . مارأيك بدلال ؟

فوجيء يوسف ان وجه زهير تغير واتخذ تعبيراً جدياً وهو يقول :

ـ حتما ستتفاجأ برأيي فيها . . انت تظن . . اعرف انك تدعي احياناً انك تقرأ افكاري . وانت تظن انني صنفتها فوراً في بغايا النوع الثالث . . . بغايا الجاليات الاجنبية . . . هذه المرة اخطأت . . دلال فتاة جيدة . . ولانها فتاة جيدة في مجتمعنا التا . . .

تذكر يوسف ان زهير لايستطيع ان يتحدث دون ان يستعمل عبارات من نوع : سافل . منحط ، حقير . وقـح . رقيـع . ابن . . . . اخو . . . . بينما كان زهير يتابع :

— التافه . . هي فتاة جيدة ، وكل فتاة جيدة في هذه الظروف الحقيرة ، فهي تغامر برأسها ، وبمستقبلها انها تقامر . . . واقول لك اني ارى نهايتها السيئة ، ارى نهايتها كنهاية ليلى ان لم تجد من يفهمها . . ان لم يجدها من هو قادر على الفهم ..أنااحبك واحترمك ولاداعي لان اكرر هذا مئة مرة . . . اتمنى ان تفهم هذه الفتاة . . وان لاتدفعها الى مصير سيء كما فعلت انا مع ليلى .

— انا !! وماعلاقتي بها ؟

اجاب يوسف مستنكراً : فبان الغضب على وجه زهير وهو يقول :

— لاتنكر ولاتتنكر . . قلت لك من قبل تستطيع ان تكذب على نفسك اما علي فلا . . اسمع هذه الفتاة كانت تريد حضورك في عيد ميلادها ، منذ الخميس الماضي دعتك على هذا الاساس . . كانت تريد حمايتك من مورتون وايت ومن نفسها ، كانت تريدك ان تخلصها منه ، من تعلقها به . . الآن انا متأكد انها متورطة مع استاذها . . لكنها تريدك ان تخلصها . . وانت . . انت اسمح لي . . انت تصرفت كأي برجوازي صغير ،

اخلاقه الحقيقية هي اللا اخلاق . . هي الجبن . . رأيتها واقفة على الهاوية فدفعتها اليها ، وكان يجب ان تسحبها عنها ، انت كان . .

— عدنا الى اتهامك بالبوجوازية الصغيرة . ألا يكفي أن . . . . ؟

— اسمع .. انا لااتهمك . . قلت لك مرة ان فضيلتي الوحيدة، ان كان لي فضيلة،انني لاادعي التقدمية وامارس اخلاقاً اخرى . . انني امارس هذه الاخلاق الاخرى مباشرة وبلا غطاء . . انا قادر على الاعتراف باخطائي وفضح نفسي . . اسمع انا هو الذي دفع ليلى للتشرد والزواج بجاسوس . . اسمع انا متأكد ان جان كلود جاسوس . . وانا القيتها في احضانه بغبائي وجبني . . اسمع وافهم . . دلال فتاة مناسبة . . اعمل على فهمها . . استوعبها . . وهي تحبك وتحترمك . . انت القادر على انقاذها و . .

— لست جمعية خيرية . . لست مسيحا . . .

اعترض يوسف على زهير محتداً ومتضايقاً من استاذيته ،

لكن زهير فهم ان يوسف انما يحاول اقناع ذاته هو اولا فتابع :

ــ اسمع . . انت بدأت ترفض ان تسمع . . انت بدأت تتعود على صوتك الوحيد . تحب ان تمشي في بساتين يبرود وجبالها وتحاور نفسك ، انت بدأت تنسى ان هناك آخرين بدأت تنسى كيف تجادل . . بدأت تنسى الدرس الاول الذي تعلمناه في الفلسفة الا هو الجدل وغايته ، كيف تبني فكرتك، كيف تكتشف الحقيقة عن طريق الحوار مع الآخرين . . انت صرت تكتفي بالحديث مع نفسك ، بالحوار مع نفسك . . انت ادمنت هذه العادة الكريهة . . هذه العادة السرية . . اسمع انت بدأ . . .

كان صوت زهير يرتفع واشياً بانفعاله الصادق وتألمه من وضع يوسف. كان له ملاحظات واعتراضات عديدة على تصرفات يوسف وانزوائــه في السنوات الثلاث الاخيرة ، ووجدها مناسبة لمصارحة يوسف آملا مساعدته على الخروج من عزلته فتابع :

ــ اسمع... هذه ليست ثقافة . . انت تركض وراء

التأملات والكتب والسينما . . . هذه ليست ثقافة . . ليست سياسة . . هذه واعيدها عليك . . هذه عادة سرية . . انت اصبحت ترفض الناس . . طيب ياسيدي . . من انت في النهاية ؟ سيرفضونك كدودة ، عليك ان تفهم دلال . . عن طريق دلال ستفهم نفسك وستعيد بناءها . . ستعيد صلتك بالناس . . لايفكي ان اكون انا صديقك الوحيد . . نسيت حيويتك عندما تعارفنا للمرة الاولى ؟ نسيت انني احببت فيك رحابة صدرك وقدرتك على الحوار . . نسيت انك كنت تردد دائماً : علينا ان نفهم الناس لا ان ندينهم ، نسيت ان المعرفة سؤال ، والسؤال موجه للآخر دائماً ، إصح على نفسك يايوسف ؛ اصح انت تنحدر في هاوية ، في جهنم ، بينما تظن نفسك تراقب انحدار الاخرين وتشمت . .

ـ انا انحدر ؟

ـ نعم ياسيدي انت تنحدر . . تظن نفسك إلهاً يراقب الناس ولايلوث يديه بتفاهات الحياة الدنيا ، يقرأ ويتسكع في البراري . . اريد ان اسألك . . لماذا خرجت من السهرة ، لماذا رفضت ان تعطي دلال حمايتك ، لماذا.. ؟

حاول يوسف ان يخفف من توتر زهير بالمزاح فقال :

ـ اعرف . . انت آسف على فوزية .

ـ لاتمزح الآنارجوك .. تعرف فوزية ليست مشكلة، انت المشكلة . . مالك تجعلني اصيح في الشوارع كأننا نتقاتل . . امش نشرب فنجان قهوة في مكان ما . . اللعنة عليك مادخلي بك ، هل انا امك . . زوجتك ؟ ..جدتك ؟ ابوك ؟ . . لكن اترك المزاح ، قبل ان ننهي الموضوع اقول لك لقد تصرفت كرجل شرقي . . كمتخلف.. كجبان حقيقي .

ـ دلال ستسر من اتهامك لي بالمتخلف والرجل الشرقي.

ـ معها حق . . هي وليلى وليس وفوزية . . وجميع الفتيات . . ماذا قدمنا لهن غير الصورة المتخلفة لآبائنا . نحن لانشتغل الا لصوصاً أو حراساً على فروجهن . . لنتركهن ياأخي . . لنتركهن . . اسمع ..

– انت اليوم مسرور على دور الاستاذ . . اشتغل في التعليم ،أفضل ...

– اسمع . . اسمع ثمة جيل جديد نحن كنا بدايته . . جيل يريد انيتحرر .. جيل دلال وليلى وليس وفوزية.. جيل يريد ان يبني تجربته . . ان يبني مثله . . ان ينفض هذه الحياة الشرقية البائسة ، لم يعد الرجل هو البطل وحده . . تذكر ابطال الروايات . . تذكر عصفور من الشرق وقنديل ام هاشم وموسم الهجرة والحي اللاتيني . . نحن تجاوزنا هذه الحالة . . حالتنا الان هي جان كلود ومورتون وايت في بلادنا . . حالتنا الان ان ليلى انجذبت الى جان كلود لانني من بقايا الماضي ، او هكذا تصرفت انا ، ودلال ستذهب مع مورتون وايت لانك اجبن مني واحقر لانك ترفض ان تتعلم من تجربتي أنت . . .

– ياعرص تبهدلني وكأنني . . .

– ياأخي أحكي معك جدياً . . اسمعني الان ولن اعيد هذا الحديث الجدي معك والله . . لكن بالله اسمعني..

اعتبر ان لدي رغبة في الثرثرة ، واسمعني . . افهمني . . لاتكن صغيراً وعاشقاً يغار . . . حاول ان تفهم ماذا تعني علاقة دلال بمورتون وايت . .

احس يوسف بوخزة في قلبه عندما استعمل زهير تعبير « علاقة دلال بمورتون وايت » بينما كان زهير يتابع غير ملتفت الى يوسف وكأنه يحدث نفسه :

— . . استوعبها . . افهمها . . . ليس الذكاء ان تفهم قنديل ام هاشم ، وعصفور من شرق وموسم الهجرة وأصوات سليمان فياض . . الذكاء . . الفهم هو ان تفهم دلال . . هذا ماتعلمته أنا من علاقتي مع ليلى ، ومما حدث مع ليلى . . هذا ماترفض انت ان تتعلمه . . لانك . . لانك . . لاأعرف ماذا اقول . . ادخل . . ادخل . . تفضل . . هذا مقهى الدار . . تفضل . . ادعوك على كأس نبيذ . . ادخل نبل ريقنا فقد نشفت لي ريقي يا ابن الكلب . . ادخل . .

متجاوباً مع زهير مزح يوسف :

— ادخل ادخلك الله مدخلاً حسناً . . الى جهنم .

– لا . .ادخل الى بيت . . الى قلب دلال . . غداً لجمعة . . وعليك ان تزورها في البيت. . هي ذكية وستعرف ان زيارتك هي اعتذار عن تصرفك الحقير هذا المساء . .

ثم غامزاً بعينيه ضاحكاً وهو يقول :

– ولابأس بهدية لعيد الميلاد . . أأظل اعلمك ؟

• • •

مـــنرقـــا

كان يوسف مقتنعاً بصحة كلام زهير . لكن كبرياءه الموروث من نشأته الريفية جعله يتصرف بشكل مغاير لقناعته ووعيه . كان مقتنعاً أن دلال فتاة جيدة ، وأنه يجب أن يزورها صباح الجمعة ، لكن قوة ما جعلته يحس نفسه عاجزاً عن رؤيتها ، وجعلته يعود إلى بيروود صباح الجمعة بـدل أن يذهب إلى دلال . لم يكـن الخجل من دلال أو الحقـد عليهـا هو ما جعـله يهرب من نفسه ومنهـا ، ولكن عجزه عن تحديـد مشـاعره تجاهها . كان في موقفه بعض الصغار ، وبعض الكبرياء المهزوم الذي الذي يحاول أن يرد اعتباره . لكن يوسف الذي رتب حياته بشكل مغاير لما يحدث معه الآن لم يستطع أن يتحسس هذه النسمة اللطيفة في مستنقع حياته الراكدة ، وربما كان

في داخله رفض ما لهذه الحصاة الصغيرة التي حركت بحيرة نفسه . كان يوسف قد رتب أموره على أنه سيعيش وحيداً ، سيعود عندما يكون هناك مكان مدرس فلسفة شاغر إلى طرطوس ؛ ويعيش الحياة التي يحب : يذهب إلى الضيعة ، إلى ارواد ، إلى القرى الجبلية والساحلية ، يقرأ ، يجلس في المقهى البحري ، يحضر الاجتماعات الحزبية مع ايمانه انه لن يخرج منها أي شيء ، يعيش مع الناس الذين نشأ وتربى بينهم . والخلاصة انه كان يحلم بالعودة إلى الشرنقة التي لم يدرك أن الزمن مزقها وقذفه خارجها ، لكن ها هي ذي فراشة ملونة تتطاير امامه بعد أن ظن أن القلب مات ، وأن العين صارت عمياء اللون ، ها هو ذا قلبه يخفق من وراء ظهر ترتيبه وقراراته ومشاريعه ، بعد أن ظن أن هذا القلب توقف عن الخفقان في محطة منرفا ايام كان في الثانية والعشرين معلماً ابتدائياً مقبلا على الحياة والحب والسياسة في ريف الجزيرة . كانت وقتها اجواء ما بعد حرب حزيران ، أجواء اوائل السبعينات ، وكان يوسف واحداً من هذا الجيل الذي احس انه هزم حقاً . ولكنه ليس المسؤول عن هزيمته . وبهذا سيقاوم وسينتصر . لقد كان يقول مع رفاقه أن البلاد

هزمت لأن الحكام ناموا ولأن الشعب أبعد عن القضية ، وكان هناك وصفة سحرية جاهزية : ما على السياسة إلا التوجه إلى الشعب . كانت الوصفة بسيطة وساذجة إلى درجة أن منرفا ، وهي فتاة سريانية جميلة ، اقتنعت بها منذ أول مرة حدثها عنها يوسف ، وفي أول لقاء ، ولم يعد هناك من داع لحديث آخر في السياسة مع منرفا لاقناعها . بل اتى دور الحديث للاقناع بالحب ، عام كامل قضاه يوسف مع منرفا ، منرفا اللطيفة ، منرفا الندية ، منرفا الوضاءة والمتفتحة كوردة . . منرفا . . منرفا . . ولكن منرفا تزوجت في العام الثاني مهندساً وطارت معه للعيش في كندا ، تاركة يوسف يحاول اقناع الحزب بأرائه . ويتابع دراسة الفلسفة في الجامعة ليتمكن من التوسع في شرح نظرياته وارائه لكل من يقابله من الفتيات والشبان . ذهبت منرفا . وخلفت في النفس جرحاً يحاول يوسف عدم الاحساس به ، يخفيه عن الأعين وعن نفسه . ذهبت منرفا وتركت في نفس يوسف فراغاً كان يحاول ملأه بالانهماك المحموم في النقاشات السياسية والاجتماعات الحزبية والقراءة حتى بات يوصف من قبل زهير الذي تعرف إليه في هذه المرحلة ، اثناء

تقديم احد الامتحانات الجامعية ، بالالة التي تظن نفسها تفكر جيداً لأنها تثرثر كثيراً ، بينما كانت هذه الالة تحمل في داخلها عطباً خطيراً .. كانت هذه الالة تحمل أسى دفيناً ينفجر في سهرة بعد زجاجة نبيذ ، ينفجر في حديث حميم مع زهير أو صديق آخر ، أسى يخاف يوسف أن يطلق حبله على غاربه ، لأنه وقتها لن يعرف أين سيصل هذا الأسى . كان هناك اسى على مترفا ، على الايام التي تمضي والزمن الذي لا يأتي ، أسى على هذا العالم ، على هذه البلاد ، على هذا الحزب الذي صار يبدو ليوسف مثل شمعة مطفأة يحس احياناً انها لن تشتعل بعد اليوم ، ويتمنى احياناً أن يوقدها حتى بنور عينيه . اسى شفاف على هذا الحاضر الذي يحسه يوسف متسرباً من بين يديه كالماء : كالرمل ، كالهواء ، وشيئاً فشيئاً بدأ يوسف يستسلم لأساه مرتضياً مصيره ، غارقاً في عزلته وأحزانه الدفينة ، شيئاً فشيئاً ، استسلم يوسف لقدره ؛ مدرس فلسفة غير مخف لاتجاهه الفكري والسياسي ، يقرأ ، يزور قلة من الأصدقاء ، يقلل من الكلام ، يتجنب الناس ، يتمتع بالمسير في بساتين يبرود اثناء العام الدراسي ، وفي جبال قريته وعلى شاطىء طرطوس في الصيف ، ينتظر يوم

يعود ليدرس في طرطوس ، يوم يعود إلى البحر واشجار الزيتون لينهي ما تبقى له من عمر يحس الآن انه كان ضائعاً ، وما يأتي لن يغير شيئاً . . فأين . . اين أنت يامنرفا لترى ذلك المندفع العاطفي ، ذلك الاهوج كما كنت تسمينه ، وقد وقد تحول إلى شيخ حكيم في الثانية والثلاثين ينتظر سفينة هو يثق قبل غيره انها غرقت منذ قرون وقرون ؟ ؟ أين وأين أنت يامنرفا لترى يوسف . . يوسف الذي ما كان يستطيع البقاء دقيقة وحيداً ، يسأم الآن من أي مجلس فيه أكثر من شخصين . . فينسحب ليمشي في بساتين يبرود أو حقول القرية الجبلية أو في شوارع دمشق . . أين أنت يامنرفا لترى يوسف المندفع كبحر الشتاء وقد صار هادئاً كالبحر في الخريف . . أين أنت يامنرفا لتقولي رأيك في دلال ؟

في هذه الحال النفسية تعرف يوسف على أهل دلال في دمشق وتذكر القرابة البعيدة . وفي هذه الحال زارهم وتعرف على دلال ، هو البركان الخامد الذي يتمنى أن ينسى أيام فورانه ، أيام فورانه التي اتى زهير الآن يذكره بها ، زهير الذي عاش معه ايام النقاشات والحماس ، لكنه ظل بعيداً عن الالتزام والتنظيم ، ها هو زهير يذكره بماضيه وكأنه يذكر ببؤسه الراهن ، بؤس حياته وضيعتها ، وكأنه

يقول له أن الذي لا يتقدم يتقهقر ، ها هو يذكره بفراغ نفسه وخيبتها ، ها هو زهير يقرعه وكأنه ضميره الغائب ، صوته الخفي ، بقايا النار تحت الرماد ، ودلال . . هل كانت الا زهيراً آخر يحاول دون معرفة أن يكشف الرماد عن جمرة القلب التي تناسى يوسف فنسي أنها موجودة ؟

فتح يوسف كتاب « عصر التنوير» الذي اشتراه منذ فترةقريبةوحاول القراءة هارباً من ذكرياته ونفسه ، لكنه احس أن ماضيه وحاضره ماثلان ومصوران في كل صفحة من صفحات الكتاب . كان يرى صوراً على الصفحات . . أدرك أنه لن يستطيع أن يفهم أية كلمة . . أغلق الكتاب . قام وغلى فنجان قهوة ، قعد يشربه مستسلماً لذاكرته وذكرياته التي بات يدمنها ويكاد يعرف تسلسلها ، لم يعرف كم استمر على هذا الوضع ، ولم يخرجه من اجترار ذاكرتهالا صوت الباب يقرع . فتح وإذا بشرطي ، احس مخافة في البداية ، لكنه تذكر انهم كانوا اتوا كمدنيين لو كان الأمر سياسياً . سأله الشرطي :

— الأستاذ يوسف ؟

— نعم . . . تفضل . . ماذا تريد ؟ !

— تفضل . . وقع هنا من فضلك

نظر يوسف كان تبليغاً للالتحاق بالاحتياط .

يوسف

احس يوسف بشيء من الارتياح لاستدعائه ، صحيح أن العام الدراسي في أواخره ، لكنه سيتخلص من الامتحانات والتصحيح والمراقبة ، ويعود إلى البحر والمقهى ، وهو يعرف انه لن يفعل شيئاً في الجيش الا القراءة ، ثم أنه سيتخلص بشكل طبيعي من هذه المشكلة التي طرأت ، والتي لا تعرف كيف وجد نفسه فيها ، هذه المشكلة التي حركت هدأة حياته الساكنة بل وبدأت تهدد مشاريعه المستقبلية ، إن صح أن يسمى قراره في حياة العزلة مشروعاً مستقبلياً . فكر باخبار زهير هاتفياً انه استدعي إلى الجيش ثم الذهاب إلى طرطوس مباشرة ، لكنه قال في نفسه أن من الأفضل أن يذهب إلى دمشق اولاً ويرى زهير ويأخذ معه بعض الهدايا. فكر ببيت المساعد وأن يزورهم ، لكنه قال في نفسه : لن اذهب . ثم قال : من الأفضل أن أذهب فربما يحتاجون شيئاً ما من طرطوس ، أو القرية ، عاد فقال في نفسه : لن

أمر ، وهذه فرصتي للتخلص من الموضوع ، فقد كان يوسف يلاحظ أن أهل دلال يريدون علاقة جدية بينه وبين دلال . أخيراً قرّ رأيه على الذهاب إلى دمشق وزيارة زهير وعدم زيارة بيت المساعد .

ظهر الأحد كان يوسف في دمشق . اتصل بزهير في الجريدة ، التقاه وتغديا معاً ، واتفق معه على أن يأتي كل اجازة إلى دمشق . قال زهير بأن ليلى وجان كلود سألا عنه يوم الجمعة عندما تغدوا في دمر ، وقال له بأنه قال لليلى أن يوسف هارب من نفسه ومني ومن حب طفولي هذه الايام. أجابه يوسف «تظل تغتابني ياعرص» فأجاب زهير قائلا انه على خلاف عادته فقد قرر الا يتكلم الا الحقيقة بعد اليوم وعلى الله الاتكال ، ثم سأله جاداً ألن تودع دلال ؟ فأجاب يوسف متضايقاً :

— ومن هي دلال بالنسبة لي حتى اودعها ؟

وحتى يغير الحديث قال بأنه كان يتمنى لو استطاع أن يرى ليلى وجان كلود وأن يتغدى معهما يوم الجمعة ،

لكنه كان يحس بحاجة للوحدة . طلب من يوسف أن يسلم له على ليلى وجان كلود ، وتذكر فوزية فأضاف مازحاً :

— وسلم لي على السيدة فوزية الصباغ يامحترم .

ضحك زهير وقال بأنها اتصلت هذا الصباح قبل اتصال يوسف ، وانهما اتفقا على العشاء هذا المساء معا . ضحك يوسف وذكر زهير بنظريته عن انواع البغاء الثلاثة أجاب زهير ضاحكا :

— معك حق . . . فوزية من النوع الثاني . .

سكت ثم أضاف هي بين الجد والمزاح والاسى :

— ولكن ما يحيرني ، أي نوع من البغايا هو أنت وأنا ؟

ودع يوسف زهير واتجه إلى محطة سيارات الكرنك في البرامكة ، محاولاً ايجاد مقعد في سيارة الساعة الثالثة ، وأن لم يجدها يذهب إلى محطة السيارات الصغيرة في العباسيين فوراً . لم يجد مقعداً في الكرنك كما أمل ، اشار لسيارة

أجرة انتقله إلى العباسيين ، وعندما فتح الباب لمعت في ذهنه فكرة الذهاب إلى بيت المساعد ، فربما كانوا محتاجين لبعض التوصيات في طرطوس أو القرية ، وإذا كان المساعد في البيت فسوف يسأله عن الوضع العسكري :

— إلى المزة يا معلم ، من فضلك .

• • •

المساعديونس

كان المساعد يونس عائداً من المعسكر ، يجلس وحده في المقعد الامامي قرب السائق وهو يفكر بابنته دلال ، لقد تغيرت طباعها في الاونة الأخيرة ، صارت حادة ، عصبية تسهر وتتأخر خارج البيت كثيراً،اهملت اخاها الصغير ، وتختلف دائماً مع أخيها الثاني محمد ، بدأت تتنافر مع امها وتناكدها، وحتى هو، هو الذي كان يجد فيها حلمه بالعلم، هو الذي احبها ودللها وكان يعتمد أن يربيها فيجو خال من العقد ، ينمي شخصيتها المستقلة ، جو من الحرية الحقيقية والثقة وعدم الكذب ، بدأ يشك في صدقها ، احس اكثر من مرة انها كانت تكذب عليه وإن تظاهر بتصديقها ، بل أنه بدأ يلاحظ شيئاً من عدم الاحترام في حديثها معه . لا يعرف كيف حدثت الامور وكيف حصل التغيير ، لكنه بحسه ، صار لديه مجموعة من الاحاسيس والشكوك التي

ليس لديه دليل ملموس عليها . انه يحب ابنته ويريد لها الخير ، وقد بذل في سبيلها هي واخوتها كل ما يستطيع : وها هو الآن بدأ يحس ان ابنته تتسرب من بين يديه وأن الزهرة التي زرعها ورعاها بدأت تذبل مع انه لم يهمل رعايتها ليلة واحدة . تذكر يوسف وتمنى لو كان الأمر تم بينه وبين دلال بالتلميح للموضوع مع يوسف ، لكنه تذكر أن يوسف لم يأت الخميس الماضي ، وتذكر طريقة كلام ابنته ، فظن أن يوسف ربما يكون تضايق من حدة دلال ؛ ثم فكر أنه ربما يكون من المجدي ان يسأل دلال مباشرة عن حالتها ، أن يتصرف تصرفاً لطيفاً معها فيدعوها إلى مشوار ، أن يجلس معها في الحديقة العامة ، في مكان ما ، وأن يسألها عن سبب تغيرها ، أن يقول لها : يابابا ، اعتدنا أن نكون اصدقاء . . بابا انا لست كالاباء الآخرين . . انا صديقك كما تقولين . . . أنت اكبر اخوتك في البيت ومحسن مسافر . . لماذا أنت متغيرة هذه الايام . . ؟ ماذا بك ؟ . هل أنت تعبة ؟ . متضايقة من التعليم ؟ اتركي الساعات . . تفرغي للدراسة . . أنا لا أريد منك الا أن تتعلمي . . أنا بذلت حياتي في سبيلكم . . تركت قريتي ونفيت نفسي إلى

العسكرية، وأنا لاأحبها قضيت عشرين عاماً في الجبهة، لماذا كل هذا ؟ . لماذا ؟لولاكم. .في سبيل سعادتكم..مستقبلكم. .لماذا صرت تختلفين مع امك في البيت ؟ . لماذا صرت عصبية ؟. لماذا تضربين الصغير علي ؟ لماذا تناكدين محمد ؟ . أنا نفسي بدأت أشعر انك ما عدت تحترمينني كالسابق . . يا ابنتي ماذا تريدين يادلال بالله . . ؟

وصلت السيارة المزة . . نزل المساعد واتجه ناحية البيت. وصل الباب ، رأى الباب مفتوحاً . سمع صوت يوسف ، فسر للوهلة الأولى ، لكن الجملة التي سمع يوسف يقولها جعلت قلبه ينقبض وهو يفكر : ها ها عادا للخلاف . كان يوسف يقول :

— ارجوك . . الا تحاولي الانتقام من الرجل الشرقي ، من اوهامك عن الرجل الشرقي ، على الاصح : مني أنا . . هكذا أنتم اولاد البرجوازية الصغيرة . . اعرفكم . . تحسبون أن الثورة هي في شتم الأهل والوطن ، والاساءة إلى الأصدقاء ، تحسبون إن الثورة هي التمرد على الأب وتنسون . .

كان المساعد قد دخل ، ومشى في الصالة التي تستعمل للجلوس ، وهو يسمع يوسف يتابع .

ـ ان الثورة يجب أن تكون في المجتمع ، في الوعي ، في . .

ـ اهلا بابا . . .

قالت دلال منبهة إلى دخول ابيها ، بينما توجه نظر المساعد إلى وجه يوسف المربد ،

ابتسم المساعد وقال :

ـ مرحباً استاذ يوسف . . ها قد عدتماللخلاف .

ثم توجه إلى دلال قائلا :

ـ أين أمك ؟ أين علي ؟

كان المساعد يحاول اضفاء هدوء طبيعي على الجو بعد أن لاحظ هذين الوجهين المربدين الغاضبين . ادرك المساعد أن ثمة خلافاً عميقاً بين ابنته ويوسف ، فقد رأى العداء وبريقاً كالحقد في عيونهما ، فاستغرب ذلك .

ـ نسيت أن أغلي لك قهوة . . النقاش انساني . . ما

ما رأيك يابابا تشرب معنا ام أنك تريد أن تأكل . . سأخرج بعد خمس دقائق . . هل احضر لك طعاماً . . ماما ذهبت إلى بيت الجيران لتحضر علي .

كانت دلال تتكلم بشكل سريع كمن يريد أن ينهي موضوعاً قبل ذهابه المستعجل . تضايق الأب من ذلك ؛ بينما اعتبر يوسف اشارتها إلى ذهابها نوعاً من عدم الاحترام له ، ثم فكر بأنها ربما كانت تتقصد اهانته ، حضرت الأم ، فلاحظ يونس انها لم ترحب بيوسف كما تفعل عادة ، عرف أنها كانت موجودة وربما خرجت بعد وصول يوسف لافساح المجال للحديث بينه وبين دلال.

ـ كيف الاحوال العسكرية هذه الايام ؟

ـ زفت ، الحالة متوترة . . واظن أن الحرب ستقوم مرة أخرى . . . سئمنا هذه الحروب غير المجدية .

ـ معك حق . . . لكن هم الذين يفرضونها .

ـ صحيح

كان يوسف مقتنعاً أن الاسرائيليين لن يهاجموا ، لهذا قال :

— اظنها مجرد مناورات للضغط السياسي . . وفي اكثر الاحوال يكتفون بعملية صغيرة في الجنوب اللبناني .

— ونحن ، ماذا سنفعل في هذه الحالة ؟

— لن نفعل شيئاً ، هناك خط احمر يحرص الاسرائيليون والسوريون على عدم تجاوزه .

— عندما تقوم الحروب تضيع الوان الخطوط يا يوسف.

احس يوسف برنة المودة في كلمة يا يوسف ، هذه أول مرة لا يقول له المساعد الاستاذ يوسف .

— لا . . مع سوريا الموضوع معقد وله ابعاده الدولية.. الاتحاد السوفييتي . .

اجاب يوسف بلهجة الواثق والمتعمق في السياسة الدولية ، لكن المساعد قاطعه قائلا :

— لا أظن أن اسرائيل تبالي بأحد . . لا أظن أن أحداً معنا ، دائماً تتكلمون انتم التقدميين عن الروس . . والروس لهم مصالحهم .

لم يكن يوسف راغباً في مثل هذا الحديث السياسي ، فهو يعرف

سلفاً اراء المساعد في هذا الموضوع . نظر إلى ساعته كانت قد بلغت الخامسة . انتبه إلى أن دلال غير موجودة وأنها خرجت دون أن تودع . قال للمساعدبأنهاستدعي للاحتياط ، وأنه ذاهب إلى طرطوس للالتحاق ، وسأله فيما إذا كان يريد شيئاً من القرية ، اوصاه المساعد أن يسلم على الاهل ، وأن يستعلم اخاه محمد أين وصل بناء البيت في القرية ، وعلى الباب قال يوسف بأنه يظن أن الحرب لن تقع ، أما زوجة المساعد فقد تقدمت إلى يوسف وقبلته كأنها تقبل ابنها . لم تستطع كتمان عواطفها تجاهه هذه المرة ، وكانت تقبله للمرة الأولى . قبل يوسف الصغير علي للمرة الأولى أيضاً . صافح المساعد والمساعد يقول له :

— آمل أن يكون رأيك اصح من رأيي هذه المرة . . ان شاء الله لا تقوم الحرب .

دلال

خرجت دلال من البيت وليس في ذهنها مكان محدد تقصده ، فكرت بالذهاب إلى السينما لكنها لم تجد رغبة ، فكرت بالذهاب إلى فوزية ، لكنها تعرف أن فوزية هي الآن مع زهير ، وانهما سيتعشيان معا ، لم تكن دلال تقر فوزية على طريقتها السريعة في الاستجابة للدعوات وبناء العلاقات ، لكنها كانت تحسدها في سرها على كثرة تجاربها وعدم مبالاتها بموضوع الجنس . كانت لديها رغبة دفينة أن تعيش كفوزية ، لكن تربيتها لم تترك مجالا لظهور كبتها متفجراً كما حصل مع فوزية،فبقيت موزعة بين شوق دائم إلى الحرية الطليقة على نمط رفيقتها ، وبين الرغبة في الحب الحقيقي الذي تحلم به كل فتاة لديها وعي متقدم وعواطف لم تجد رجلا تضفيها عليه ، لم تجد الرجل الذي تعتقد انه جدير بحبها الكبير ، أو الذي يستحق

عواطفها ، كما تهمس لنفسها والمقربين اليها . كانت دلال تحس بتفوقها على صديقاتها باستثناء لميس المرادي ، وكانت تحس تهافت وضعف الشخصيات المحيطة بها ، وخاصة الشبان ، سواء في التدريس أم في الجامعة ، والشبان كانوا يحسون بدورهم تعاليها ويعتبرونها مدعية ، وأخيراً اقتنعت أنها فوق الجميع ، وأنها اكبر من جيلها ، وأن لا رجل يستحقها ؛ يستحق حبها ، فالرجال تافهون ، حقيرون ، كانت تغالي في اتهامها للرجال محاولة أن تخفي شوقها الحقيقي لرجل يحبها ويفهمها ، وكانت قد بدأت تصبح تلميذة حقيقية ، دون أن تشعر ، لفايزة أم فوزية ؛ إلى أن ظهر يوسف في بيتهم . كان يوسف شخصية معقدة في نظرها ، والا لماذا لما يتزوج حتى الآن ؟ سمعت عنه وعرفته وكانت متأكدة أن علاقات كثيرة عبرت في حياته ، وكان يشير في أحاديثه معها إلى بعض علاقاته العابرة ، فكانت تعتقد أن سيحاول أن يلهو معها كما فعل مع غيرها ، لكن يوسف لم يأت بأية اشارة لاهية او خارجة عن حدود اللياقة ، فبدأت تتهمه بالجمود وبالبرود ، وأخيراً بدأت تتهمه بالغرور في سرها وتفكر به كشخص بغيض متعال

يجب اذلاله ، لكنها تود أن تراه وتتحدث معه ، أخيراً اراحت نفسها ، وصرحت للميس المرادي بأن يوسف شاب معقد ، مثل كل الرجال الشرقيين ، واستشهدت لنفسها بدليل خروجه من حفلة مورتون وايت ، ولا تدري هل كانت متوجهة عمداً او لاوعية إلى بيته عندما خرجت من البيت ، هي نفسهالا تعرف كيف رأت نفسها تضغط على الجرس ، وتنهمر معانقة الدكتور بعد أن فتح الباب ، أما الدكتور فقد قال ببرود :

— كنت أعرف أنك ستأتين اليوم أو غداً أو بعد غد . هكذا انتن أيها النساء الشرقيات .

نظر اليها نظرة فيها مزيج من العطف والشهوة ، ثم ضحك وهو يقول :

— اعرف لماذا لم تبقي عندي ليلة ميلادك . . خجلت من فوزية

أحست بالاهانة . انتفضت وقالت :

— لا . . أنا افعل ما اريد . . افعل ما أنا مقتنعةبه. انا لا أخاف . . لا أخجل من احد .

كان قد بدأ يتقرب إليها ، مسد شعرها ، هبطت يداه

إلى رقبتها ، عانقها ، بدأ يقبلها ، قالت في نفسها لأتركه ولأرى ماذا يريد ، لكنها لم تكن معتادة على هذه المداعبات ، فنفرت ، ثم قالت برقة :

— ارجو . . ارجوك . . ابتعد . . ما اتيت لهذا . . لنشرب قهوة . . . كنت مارة من هذا الشارع . . فقلت امر عليك .

أحس مورتون وايت أنها تكذب ، وانها تتحجج ، فأدرك انها وقعت ، وعرف شخصيتها ، عرف اسباب شدة احتفائها باستقلاليتها ورغبتها في أن تبدو امامه بمظهر فتاة متحررة ، غير شرقية ، وبعيدة ، عرف أنها تهرب من حقيقة نفسها ، قال متابعاً حديثه :

— لا . . لا ، خجلت من فوزية . . . سنشرب شيئاً غير القهوة . .

حضرّ شاياً وأحضر كأسين ، صب فيهما ، ثم تقدم اليها وعانقها مرة أخرى وهو يقول :

— كم أنت لطيفة . . لكن مشكلة المرأة الشرقية انها معقدة . . تخاف الآخرين . . تنسى حقها في الحياة .

لم يكن يخدعها ، كان يحسها لطيفة ، وكان هذا رأيه في المرأة الشرقية ، كانت دلال تصغي وهي تقول في نفسها ان كلامه صحيح . صمتت وتركته يفعل ما يريد ، تركت الأمور تجري على هواها ، لم تدر كيف وجدت نفسها في السرير ، هي عارية وهو عار ، لم تحس بالمتعة ، ولم تحس بالألم . كانت ذاهلة تفكر ببوسف . بدا الموضوع لها أشبه بالحلم . ولم يقنعها أن الموضوع حقيقي الا بضع نقاط دم تناثرت على الفراش ، ومورتون يقول أن الحمام جاهز . قاما . طلبت أن تشرب قهوة ، وربما لأنها ما تزال منومة تحلم ، فقد قالت لمورتون وايت وهما يشربان القهوة :

— لم تقل لي يامورتون وايت . . ما رأيك ببوسف . . استاذ الفلسفة الذي عرفتك عليه .

سألت بلهجة حاولتها أن تكون بريئة ، لكن مورتون وايت اكتشف ما وراء سؤالها . ابتسم وهو يجيب :

— شاب لطيف . . لكنه خبيث ونافذ الصبر فيما يبدو لي..وجههيشبه وجهراعي بقر امريكي ،ملابسه كذلك . .

كانت تستمتع باهتمام ، ومورتون وايت يتابع ببهجة تشي بتودده المتعالي :

ـ لا . . مستحيل أن يكون هذا الشاب استاذ فلسفة !

توقف برهة ثم أضاف :

ـ الا إذا كان اساتذة الفلسفة في بلادكم هكذا ! !

• • •

مـورتـون وايت

الدكتور مورتون وايت استاذ الدراما ، خريج جامعة هارفرد ، متخصص في فترة الخمسينات في بريطانيا وفي جيل الغضب تحديداً . كانت رسالة تخرجه عن مسرح جون اوزبورن ، يبلغ الخامسة والثلاثين من العمر ، تزوج في الخامسة والعشرين ، وفي الثلاثين طلق زوجته سالي المحاضرة في كلية الاقتصاد . يعيش وحيداً في المنزل الذي اعطته اياه الجامعة . يسافر كل عام في الصيف إلى بلد عدا دعوات المحاضرات اثناء العام الدراسي ، في العام الماضي دعي لالقاء سلسلة من محاضرات عن الجيل الغاضب في قسم اللغة الانكليزية في جامعة دمشق . اعجبته دمشق ، واعجبت به الهيئة التدريسية والطلاب ، فقد رأوا فيه استاذاً واسع الاطلاع متمكناً من التدريس ، حاضر البديهة ، وهكذا تعاقدت معه الجامعة على العام الدراسي ٨١ ــ ٨٢ .

كان الدكتور مورتون وايت ميالاً للأختلاط بالبشر ، معتدل الطول ، ذا لحية شقراء ، وطبيعة اقرب لسكان البحر المتوسط بانفتاحها منها إلى سكان جزيرة المطر والضباب. كان ما يزال يحمل في نفسه حزناً لاحساسه أن سالي انما تركته لأنها عشقت رجلا آخر.بعد سالي اقام مورتون وايت علاقات متعددة ، لكنه ظل يحب سالي في اعماقه . حاول الاتصال معها مراراً ، وتعشيا أكثر من مرة معاً ، لكنها كانت ترفض الحب معه ، ثم تباعدت اللقاءات إلى أن انقطعت ، وقد اتى إلى دمشق وفي ذهنه أن يجدد نفسه . أن يتفرغ لبعض الابحاث ، اتى وفي ذهنه أن يعيش نمط حياة جديداً ، أن يتعرف على بلاد جديدة ، وهل من مدخل إلى مدينة أو بلد ما غير المرأة ؟

لم يرتح الدكتور مورتون وايت إلى زملائه العرب ، على الرغم من أن بعضهم تخرج من الجامعة التي تخرج هو منها ، احسهم متخلفين في معلوماتهم ومناهجهم التربوية ، لاحظ خطأ العلاقة بين الاساتذة والطلاب وصمم أن يسلك كما يريد ، وأن لم يعجبهم فبلاد الله واسعة ولديه بلاده . . فتح بيته للطلاب والطالبات والأصدقاء فأتى كثيرون

وكثيرات من بينهم أحمدعبد الستار ومروان المحايري ودلال وفوزيـــة وليس التي اثارت انتباهـــه في البداية ، لكنها بدت له حذرة وجدية أكثر من اللازم ، ثم لاحظ أن دلال على جديتها تميل إليه ، عرف ذلك من حركاتها واستماعها المتأني إلى حديثه . ثم من زياراتها التي زادت عن زيارات باقي الطاليات. احس احتقارها لاساتذتها العرب. لم يعجبه شكلها في البداية ، لكنه مع الايام بدأ يحس جمالها الشرقي ، بدأ يرى طولها ، شعرها الطويل الأسود والاملس ، عينيها العميقتين ، فبدأ يحس بالمودة تجاهها . كانت دلال بقلقها احياناً ، وهدوئها احياناً أخرى ، تبدو له فتاة شرقية خجولا تريد لكنها لا تصرح ، مما يزيد من تعلقه بها واوهامه انه عن طريقها سيكتشف المرأة الشرقية ، سيكتشف هذا الشرق الملفع بالاسرار . احس انها احضرت يوسف إلى حفلة عيد ميلادها للتغطية ، أو لإفهامه أن لها صديقاً خاصاً ، كان بارعاً في فهم النفوس. فحلل انها تريد اثارة غيرته بيوسف ، وإثارة غيرة يوسف به . أدرك انها تحمل مشاعر حب خاصة ليوسف ، عرف من ذلك اكتئابها بعد خروجه من الحفلة ، ثم تأكد من ذلك عندما رأى ضحكها الهستيري وهي

تحاول تغطية كآبتها . قال في نفسه : لتتمتع معي أثناء وجودي ثم لتتزوج يوسف عندما ارحل ، لكنه احس باحتقار لنفسه لنفسه لمثل هذه الفكرة ، فبدأ يقنع نفسه أن يهواها ، ثم بدأ يرى فيها رفيقة مناسبة ولطيفة للسهرات والرحلات ، فتاة لطيفة لاتناقشه ولا تعترض ، تذهب معه حيث يريد ، تأتي إلى البيت ، تخفف عنه وحدته ، تتنزه واياه في سيارته أيام العطل ، يسافران إلى باقي المدن السورية التي يرغب في زيارتها ، يسافران إلى حلب ، وخلال ذلك فلا بأس إن تطورت العلاقة إلى حب ، فمن خلال علاقته بها سيقرر مدى هذه العلاقة ، هل يتابعان معاً أم تبقى العلاقة في حدود المدرس والطالبة ؟ ثم اضاف لنفسه « لأتركها هي تقرر علاقتها بغيري ، ربما تخف علاقتها بفتاها من خلال علاقتها بي » .

مساء الجمعة ثاني يوم الحفلة ، احس بنفسه رغبة لرؤية دلال ، تمنى لو كان يعرف بيتها ليذهب اليها . تذكر أنها مرة تعمدت الا تدله على بيتها . قال في نفسه بان هؤلاء الشرقيين اصحاب سرية في كل شيء ، حتى في منازلهم ، تذكر انه لا يعرف عنها شيئاً سوى أنها طالبة جيدة . وانها

قوية الشخصية بالنسبة للاخرين ، لاحظ أنها قليلة الكلام عن حياتها الخاصة وتحاول أن تبدو كمن لا أسرار او علاقات خاصة عنده ، كما لاحظ أنها تريد ان تبقي علاقتها به في حـــدود علاقـــة الاستاذ والطالب امام الآخرين عـــلى الأقـــل ، قال في نفســـه ستأتي حتمـــاً ، كان يفكر بها وهو مستلق في سريره يقرأ رواية جديدة ، تشكك برأيه وقال قد لا تأتي بعد أن عرضت عليها أن تبقى لتنام في بيتي ثم رفضت . اطفأ الضوء لينام وهو يتمتم بينه وبين نفسه :

«هؤلاء الشرقيون الغامضون من الصعب أن يفهمهم المرء»

استقر رأسه على الوسادة ، تذكر قولاً لم يقتنع به أبداً لروديار كبلنغ :

«الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا»

تذكر رغبته في رؤية دلال خارج الدرس ، فعقب على قول كبلنغ مفكراً :

« لا . . التقاؤهما ممكن . . ممكن . . ولكن متى ذاك الوقت السعيد ؟ ! ؟

المساعديون

عندما عادت دلال إلى البيت كانت ما تزال شبه منومة ، سألها ابوها لماذا تأخرت كل هذا الوقت ، إذ رآها تعود في الواحدة ، فأجابت « أنا تعبانه اتركوني اريد أن أنام » فوجىء الأب بالجواب ، حاول أن يتمالك نفسه وقال لها بأنه لم يسألها عن حالتها بل سألها لماذا تأخرت ، عاودت أنها تعبانة ، واضافت هذه المرة « لا أريد أن يحكي معي أحد » شعر الأب انه أهين واستيقظ في نفسه كل حبه لها مثلما استيقظت كل سنوات خدمته في الجيش . استيقظ حب الأسرة الذي ربى نفسه عليه وحاول أن يزرعه في دلال فقال غاضباً :

ـ إذا كنت لا تريدين لاحد أن يحكي معك فعيشي وحدك . . . في هذا البيت نحكي معك وتحكين معنا .

كان واضحاً انه يجهد نفسه ويجبرها على التماسك .

بدأ يحس بجسده يرتعش . بدأ يحس أن لا أطراف له . سمعها تقول بأنها ستعيش وحدها وبأنها ما عادت تحتمل احداً. سمع الأم تتساءل هلعة « دلال !ماذا تقولين ؟ » حاول أن يتماسك أكثر ثم قال لها ليبعدها عن وجهه ريثما يهدأ غضبه «انقلعي»فسمعها تجيب متابعة صراخها الهستيري « لن انقلع أنا شوكة في عيونكم : اكرهكم »

سمعها تردد صارخة : اكرهكم . . اكره هذا الزواج الذي تطبخونه لي اكره هذا اليوسف . . . أريد أن أعيش حياتي وحدي . . اريد أن اتعلم . . أنا اسافر . . أن اترك هذه البلاد الحقيرة . .

كان غضب الأب قد بدأ يزداد مع ارتفاع صوتها . أحس يده خفيفة ولم يدر ماذا فعل ، لكنه سمعها تقول :

— تضربني . . تضربني . . حتى أنت تضربني . . حتى أنت حقير مثل غيرك . . كلكم حقيرون . . تضربني . .

كانت الصفعة قد ايقظتها من الهستيريا الصراخية ، لتلقيها في بركان من البكاء والغضب ، فهذه أول مرة تصفع فيها . اندفعت إلى الباب صارخة :

– لن أعيش معكم ، لن أعيش في هذه البلاد الحقيرة..

فتحت الباب واندفعت خارجة ، تبعتها امها وهي تصرخ :

– دلال . . اعقلي . . دلال ارجعي

والأب يصرخ :

– اتركيها تروح . . اتركي ها الشرموطة . . اتركيها .

ازداد ذهول الأم وصرخت :

– يونس . . يونس. . مالك . . جننت ..يونس .. دلال ارجعي . . اعقلي . .

بينما يونس يصرخ :

– إلى جهنم . . إلى جهنم . . .

بعد دقيقة من خروج دلال وبداية صمت الليل الرهيب ، وعندما نظر يونس حواليه وتأكد أن دلال قد ذهبت . احس بفراغ ، واحس أن عينيه تدمعان ، ثم سمع نفسه ينشج نشيجاً متقطعاً ما لبث أن تحول إلى بكاء كالعويل .

يوسف

بعد يومين من التحاق يوسف بدأت المعركة وهاجم الاسرائيليون الجنوب اللبناني ، ثم ما لبثوا أن هاجموا قواعد الصواريخ السورية في البقاع ، وبعدها هاجموا القوات السورية في «جزين» واندفعوا بدباباتهم مهددين باحتلال البقاع ثم ضرب سوريا في وسطها وقسمها إلى شطرين عند حمص . كان يوسف معسكراً في وحدة مدفعية ساحلية قرب مصب النفط بين بانياس وطرطوس ، نُبهوا مراراً وانذروا ، لكن العدو لم يظهر أبداً على الشواطىء. صار يتابع الأخبار في الراديو ، ويتساءل كيف يفكر زهير . كيف يفكرون في الحرب . فالحرب الشاملة قد تقوم في أية لحظة . فاجأ نفسه يفكر بدلال . ويسأل نفسه كيف تفكر هي أيضاً . ثم ساءل نفسه ، ماذا حدث بينه وبين دلال من أمر جدي حتى يفكر بها ، ومن هي دلال بالنسبة له حتى

يتساءل ، اويهتم لرأيها في هذا الموضوع الخطير ؟ وذات مرة اقترب منه . وهو في افكاره هذه ضابط جديد وسأله أن كان يظن أن الحرب ستتطور أم تبقى في حدود الاشتباك المحدود ؟ اجاب يوسف : «لا» على الرغم من أن التصعيد مستمر ، سأله الضابط لماذا لا نفتح جبهة الجولان؟فاستخف يوسف بالسؤال واجابه « هل تظن الحرب الشاملة بهذه السهولة ، نحن لسنا مستعدين . . غير راغبين في الحقيقة . . وربما غير قادرين » اجاب الضابط « أنت مخطىء الروس لا يسمحون لنا . . لا يعطوننا سلاحاً جيداً او كافيا . .انظر كيف هوت الصواريخ كالورق » ضحك يوسف واجاب «اخشى ان نكون نحن الورق لا الصواريخ » فقال الضابط بأن هناك كثيرين من المتحمسين للروس في هذه البلاد لأنهم لا يعرفون شيئاً . احس يوسف بعقم هذا الحديث المكرور ، كان راغباً في البقاء مع نفسه وافكاره ، فصمت ولم يجب الضابط الشاب حتى يفهمه أنه يريد أن يبقى وحيداً .تركه الضابط وذهب إلى سريته ، بينما عادت هواجس يوسف حول الصواريخ . . تذكر قول احمد العبود : هذه المرة صواريخ وليس فخاراً ، قال في نفسه بأنه سيمر اليوم أو غداً

قرب دكان أحمد العبود ليرى من يدوام مكانه في الدكان . وهل هو حقاً مغلق أم فتحه احد غيره ، تذكر دمشق وبيروت ، تذكر زهير ، تذكر دلال ، وتذكر أنها قالت له بأن مورتون وايت قال لهـا أن الحرب ستقـع ، تذكر انه ما كان مقتنعاً بامكانية حدوث الحرب عكس زهير . تذكر الحفلـة في بيت مورتون وايت وتـذكر رأي زهير . بدأ يلوم نفسه لأنه انسحب من الحفلة . سأل نفسه : «لماذا كان يجب أن أبقى ما علاقتي بهم ؟» ثم قال : «ولهذا كان يجب أن ابقى واسهر مثل غيري »تذكر وجه لميس المرادي واتزانها . عاد يلوم نفسه لأنه يفكر بدلال. ساءل نفسه لماذا يتناكدان ؟ لماذا ثار في وجهها آخر مرة ، قال في نفسه بدأت افهمها ، هي تتضايق مني لأنها تظنني أدبر صفقة زواجها من وراء ظهرها مع اهلها . خاطب نفسه : لكنها مخطئة ، أثرت عليها فوزية حتماً . احس انه الآن فهم لماذا خرجت من البيت دون أن تودعه . قال في نفسه « حتماً هي كانت تريد افهامي انني ضيف اهلها وليس ضيفها » عـاد يلوم نفسه عـلى قساوته في الحوار معها ، ثم اخذ يلوم نفسه لأنه يلوم نفسه على قساوته . قال

من هي ؟ فتاة مدعية ، عاد فقال : لا . . هي للانصاف فتاة جيدة . . لطيفة وذكية ، لكن تجربتها ما تزال جديدة. تذكر نفسه في مثل سنها وقال بأن من الأفضل دائماً أن يشاكس المرء من هم اكبر منه سناً . احس برغبةفي رؤيتها. قال في نفسه سأزورها عندما اذهب إلى دمشق ، ستفهم زيارتي على أنها اعتذار ، ثم سأل نفسه : ماذا حدث لابيها في هذه الأيام ، وهل سيتقاعد حقاً كما يرغب ويعود إلى القرية ليسكن البيت الذي يكاد يكون جاهزاً في القرية . . عادت افكاره إلى المعركة في بيروت تذكر رأي زهير عن معركة فاصلة تنهي فيها اسرائيل وجود الفلسطينيين في لبنان،ثم تذكر تعليق زهير الخبيث على رأيه« اصلا المقاومة انهت نفسها في بيروت ولم تعد تحتاج اسرائيل » تذكر زيارته لبيروت العام الماضي مع زهير واستنتاجهما المشترك حول واقـــع الفلسطينيين . عـــاد يفكر بدلال : ما عساها تفعل الآن ؟ هل ما زالت ترى مورتون وايت بعد أن انتهى العام الدراسي ؟ هل تعمقت علاقته بها ، احس بوخزة في صدره عندما خطرت له فكرة العلاقة بين دلال ومورتون وايت . همس لنفسه «يضربوا ما علاقتي » ؟ . احس بشيء

كالاسى يتسرب إلى قلبه وتذكر منرفا . سمع جندياً ينادي للاستعداد ، فسيارة قافلة المبيت أتت . ركب السيارة وهو ساهم . نزل في طرطوس . مرعلى المشبكة ،اشترى سندويشة . اكلها واتجه إلى محطة سيارات القرية . تذكر أنه قرر ان يمر على دكان أحمد العبود ليرى إن كانت مغلقة حقاً ، سار باتجاه شارع الصالحية . من أسفل الشارع رأى الدكان مفتوحاً . وصل ودخل . رأى أحمد العبود واقفاً ؛ تظاهر باللامبالاة والقى التحية :

— مرحبا . . . يارفيق

كانت هذه كلمة المناكدة بين أحمد ويوسف ، أحمد يناكده بهذه الكلمةليفهمه انه ما يزال مستمراً على افكاره منذ المدرسة الثانوية ، ويوسف يستعمل الكلمة نفسها للدلالة نفسها .

— اهلا بالرفيق يوسف . . . تفضل . . تفضل . .

— ماذا حدث لاحتياطك ؟

كانثمةتلكالمودةالقديمة ،مودةالناسالذينيعرفونبعضهم منذ الطفولـــة والشباب بين يوسف واحمد ؛ كان أحمد

يحمل في نفسه وداً واحتراماً حقيقياً ليوسف من نوع الأحترام الذي تحمله للشخص الذي تأكدت من استقامته ، أو الشخص الذي تعجب به لثباته على رأيه حتى وأن خالفته على هذا الرأي . اجاب احمد بصراحة :

— دفعنا .

فوجيء يوسف بالجواب ، وسأل متسرعاً :

— ماذا . . كيف ؟

ضحك أحمد وهو يتابع :

— دفعنا بالتي هي أحسن . . يارفيق . . دفعنا عشرة آلاف ليرة سورية . . بسيطة ياسيدي دخل شهر . . تصور لو اخذوني إلى لبنان وبقيت كل الصيف . . . كنت خسرت أكثر من مائة ألف ليرة .

لم يجد يوسف ما يقوله لأحمد سوى التمتمة بكلمات مثل : صحيح . . معك حق . . هكذا . . بخاطرك ، ثم اتجه نحو محطة سيارات القرية .

يوسف

مضى الصيف مليئاً بالمعارك والبيانات والقتلى . كان يوسف يقول في نفسه : هذا هو قدر جيلي، إنني واحد من هذه البلاد ، من هذا الزمن، سأظل أعيش هكذا في الحروب والاكاذيب ، وبين القتلى والسماسرة ، سأظل محروماً من السلوان والحب ، ومن العيش السعيد . عادت مترفا تلح على ذاكرته أكثر من المعتاد ، وبدأ ينظر إلى نفسه كعجوز في الثانية والثلاثين مضى عمره هباء ، ينتظر موته بين المقهى والقراءة وهو غارق في ذاكرته وأساه . كان قد بدأ يمل الجيش ، وصار كثير الغياب عن وحدته. كان قائد الوحدة زميلاً في أيام الدراسة يحب يوسف منذ تلك الأيام . فكر أكثر من مرة بزيارة دمشق ،لكنه لم يذهب على الرغم من شوقه الحقيقي لزهير . كان في أعماق نفسه يخشى الا يستطيع منع نفسه من زيارة بيت المساعد كما حدث يوم استدعي للاحتياط ، وبدأ يحس بالارتباك من مجرد فكرة لقاء دلال مرة أخرى . كان يغلف خوفه بمشاعر الاحتقار

تارة ، وأخرى بالتعالي . تمنى أن يأتي زهير ، وتابع مقالاته وتحقيقاته ولقاءاته في مواقع الجنود في لبنان محاولاً أن يستشف فيما بين الكلمات المكرورة التقليدية حقيقة رأي صديقه ، هل تغير ؟ هل يحس بالانتصار لأن تحليله صح وقامت الحرب . كان يفكر في موضوع حرب الصواريخ والسوفييت ، وماذا يقول زهير عن كل ذلك ، سأل نفسه أكثر من مرة:هل رأى زهير دلال مرة أخرى ؟ كيف تطورت علاقته مع فوزية ؟ تمنى لو كان زهير موجوداً معه في طرطوس ليقعدا كل المساء على شاطىء البحر أو في القرية بدل أن يبقى وحيداً . فكر أن غيابه الطويل عن طرطوس جعله يحس أنه ما عاد يعرف أحداً ، فكل رفاقه أيام الدراسة تفرقوا أو تغيروا . مازن الحسيني صار مقدماً وقائداً لوحدته ، أحمد العبود صار تاجراً ، عبد الفتاح العمرة يعمل في دمشق ، سعيد القاسم في الكويت ، فؤاد خليل منشغل بعائلته ، الرصيف البحري القديم في الميناء ازيل ، اشجار الزنزلخت قطعت من الشوارع ، مقهى المنشية اغلق ، فماذا بقي في طرطوس ومنها ، هي ذي طرطوس أخرى لا علاقة له بها . احس أنه مثل أي دمشقي أو بيرودي يأتي ويتفرج على البحر ويركب الزوارق

إلى ارواد ـ تذكراً نه دعا دلال مرة لزيارة ارواد فلم تجب .

كان يوسف يسير على الرصيف البحري الجديد . . . مشغولاً بأفكاره وهواجسه كما يفعل كل مساءتقريباً عندما لا يذهب إلى القرية . سمع صوت منبه سيارة ، التفت وإذا المقدم مازن الحسيني يناديه عبر نافذة سيارته ومعه زوجته واطفاله :

ـ يوسف . . . يوسف . . مبروك

ـ مبروك ماذا ؟ !

اجاب يوسف متعجباً

ـ مبروك : سرحوا جميع المدرسين . . تعال غداً وسلم اغراضك .

في صباح اليوم التالي سلم يوسف اغراضه ، وعند الظهيرة كان في محطة السيارات المنطلقة إلى دمشق . في الخامسة في كان دمشق يقرع باب بيت زهير .

لم يتصافح الصديقان ، بل انقضا على بعضهما ، وبقيا حوالي الدقيقة متعانقين ، ثم دخلا صالة البيت .نظر يوسف

ورأى في احدى الزوايا بعض كتبه ، فأحس أنه يعود إلى بيته . رأى باب غرفة النوم يفتح وفوزية تخرج وعلى وجهها زينة تشي بأنها جديدة . ضحك زهير وقال :

ـ اعتقد انكما لستما بحاجة للتعارف

ـ كيف حالك ياست فوزية؟

سألها يوسف وهو يتذكر دلال ، سمع صوت زهير يقول بأنه ذاهب ليحضر قهوة . أحس بالارتباك عندما بقي وحيداً مع فوزية ، خطر له أن يسألها عن دلال ، لكنه تمكن من ضبط لسانه في اللحظة الاخيرة . ادركت فوزية بماذا يفكر وانتظرته أن يسأل ، ولما لم يفعل عرفت انه يكابر ، ففتحت الموضوع مباشرة :

ـ لم لا تسأل عن دلال ؟ . تعرف خبارها أم أن اخبارها لا تعنيك ؟

فوجيء يوسف بالسؤال على الرغم من أنه كان يفكر في الموضوع نفسه ، لكنه تبارد قائلا :

ـ معرفتي بها عادية . . أهلها من قريتنا

ـ لكنها كانت تحدثني عنك كثيراً

فوجيء يوسف بكلمة « كانت » نظر إلى عينيها طالباً أن تتابع ، فتابعت :

ـ دلال في بريطانيا

أحس أن قلبه يقع على الأرض بين قدميه . لم تكن فوزية ساذجة في هذه المسائل ، فتابعت عندما رأت تغير لون وجهه :

ـ أنت المسؤول

انتفض مدافعاً :

ـ أنا . . وما علاقتي ؟

ـ نعم . . أنت المسؤول لأ ناك . .

وقفت برهة ثم تابعت :

ـ جبان

بغضب اجاب يوسف :

ـ من أين لك الحق بالكلام معي هكذا ؟

ببرود أجابت :

– عفواً . . ليس هذا رأيي ..دلال وصفتك هكذا.. .

اتى زهير حاملاً فناجين القهوة ، شربوا ، غيروا الحديث . استأذنت فوزية قائلة أنها إذا تأخرت فستلقى أمها بالولد إلى الشارع ، ثم التفتت إلى يوسف قائلة : «لي معك حديث طويل غداً أراك ، غداً ظهراً هنا » . ثم انداررت إلى زهير قائلة بلهجة غنجة :

– هل تمانع أن نلتقي عندك ؟

استجاب زهير لدعابتها المغناج قائلا بلهجة ملغزة :

– يعني تريدين أن أترك لكما البيت ؟

عادت إلى جديتها قائلة :

– لا . . من الأفضل أن تحضر . . دائماً تمزح . . تعرف الموضوع . ولك رأي فيه

بعد أن خرجت سأل يوسف زهير :

– هل ترى فوزية كثيراً ؟

بطريقته اللئيمة ، اجاب زهير ضاحكاً :

– انام معها كثيراً

ضحك يوسف وهو يعود لعناق زهير قائلا «عرص ابن . . »

ـ امش . . امش . . نسهر خارج البيت . . . لدي مفأجاة لك لتعرف أنني افكر بمستقبلك حتى وأنت غائب . . العمى هل أنا أبوك يا ابن الكلب ؟ امش . . امش ، اشتقت لشرب النبيذ معك .

• • •

زهـــــــير

كان يوسف متشوقاً للتجول في شوارع دمشق . شرب أمس كثيراً مع زهير . تناقشا وتجادلا ، اختلفا واتفقا ، وعادا منهكين إلى البيت ، فناما سريعاً ، وها هو بحاجة ليكون وحيـــداً ليتخـــذ قراره وفي ذهنه كلمات زهير زهير له أمس وهو يقول بلهجة صارمة بعد أن حمي النقاش بينهما :

« لا تكن اهبل تعال إلى دمشق لا تحلم بطرطوس والقرية بعد الآنانظر امامك ولا تلتفت إلى الوراء مستقبلك في الشام ليس في طرطوس الانتقال إلى دمشق مضمون هناك شاغر والمفتش وعدني وهو صاحبي وقد وعدني وافق عـــلى هذه الخدمة لأنـــه صاحبي بدءاً من هذا العام ستكون في دمشق أنا سأقدم الطلب تعيش معي ريثما تجد بيتاً مجنون إذا لم توافق »

كانت الفكرة جديدة على يوسف وقد لا قاها بالصدود الذي يلاقي به المرء بادىء الأمر اية فكرة غير متوقعة ، فكيف إذا كانت مناقضة لكل الأحلام والمشاريع والأفكار. صحيح أن يوسف سئم وضجر خلال هذا الصيف في طرطوس والقرية ، الا أن ذلك لم يؤثر على فكرته السابقة حول العودة والاستقرار في طرطوس عندما تسمح الظروف. قال أن ضجره آتٍ من انه لم يستقر بعد وربما من ظروف الخدمة في الجيش ، ومن فترة بعاده الطويلة لكنه سيشعر بالاستقرار والأمان بعد أن يشعر انه عاد نهائياً ، وبعد أن يستغرق في دوامة الحياة والعمل ، عادت كلمات زهير إلى ذاكرته وهو يقول له غاضباً :

«الرجعي هو الذي يحلم بالماضي أما التقدمي فيحلم بالمستقبل مابك تريد ان اذكرك حتى بهذه البديهية طرطوس ماضيك ودمشق هي مستقبلك افهم افهمني النقل جاهز ماذا يوجد في طرطوس ياسيدي ذهبنا ورأينا وبعد ساعتين ضجرنافلقتنا بطرطوس وضعيتكم حتى رأيناهما العام الماضي

جيد ان يقضي المرء هناك يومين أسبوعاً أما أن يعيش هناك فهذه مقبرة جريمة فكر أم انك نسيت أن تستعمل عقلك فكر . . يا »

وقاطع افكاره صوت نسائي يقول :

ـ مرحباً استاذ يوسف

تطلع مندهشاً ، فرأى وجهاً جميلاً تذكر أنه سبق أن رآه من قبل ، عرفت الفتاة انه لم يتذكرها جيداً . ارتبكت واضطرت للوقوف حتى تسوغ مبادرتها بالسلام :

ـ حتماً نسيت ، أنا . .

ومضت في ذهنه تلك الحفلة اللعينة في بيت مورتون وايت ، ضحك وقال :

ـ آه . . عفواً . . لميس . . الانسة لميس . . كيف احوالك ؟

وحتى يعطي كلامه شيئاً من الرسمية اضاف :

ـ كيف الشغل ؟ !

ابتسمت واحست انه راغب في اطالة الوقوف معها ، فوقفت وقالت بأنها تدرس في مدرسة خاصة .

كان يقفان في ساحة عرنوس . لم يدر كيف اقترح عليها أن يشربا القهوة في مقصف « يامرحبا» القريب ، وهي لم تعرف كيف ولماذا وافقت . دخلا ،شربا فنجاني قهوة، وعندما خرجا من المقصف كانا قد اتفقا على اللقاء غداً :

ـ السابعة مساء . . هنا .

• • •

فـــوزيـــة

بعد الظهر اتت فوزية تحمل تفاحاً ، كانت قد تركت تدريس الساعات وبدأت العمل في شركة طيران . تغدوا معاً هي وزهير ويوسف ، ومن الحديث اثناء الطعام عرفت أن زهير لم يتحدث مع يوسف حول موضوع دلال .

بادرت قائلة وهم يشربون القهوة :

ـ هل تعرف ماذا حدث مع دلال بعد أن ذهبت إلى الجيش ؟

ـ لا . . لم أسمع عنها شيئاً من وقتها

اجاب يوسف متوتراً بعض الشيء

ـ اذن اسمع . ذات مساء جاءت إلي بعد الواحدة ليلا ، كانت مثل المجنونة تبكي وتصرخ :ضربوني . . طردوني . . اريد أن التجيء اليك . . اريد أن ارى يوسف.

بربك اذهبي معي غداً إلى طرطوس لقد طردوني . . تصوري . . تصوري حتى أبي ضربني . . هدأت بعد أن سقيتها بعض الزهورات ثم نامت عندي ، وفي الصباح قالت لي هل لديك مانع في أن اقيم عندك هذه الفترة حتى أجد غرفة .

صمتت فوزية برهة ، ثم تابعت :

بالطبع رحبت بها أنا وأمي ، في المساء لم تعد ، فظننت أنها ربما راجعت عقلها وعادت إلى البيت ، في اليوم الثاني اتت ونامت عندنا ، في الثالث لم تنم ، في الرابع قالت لي سأقول لك سراً ، عندما لا اكون عندك اكون عند مورتون وايت ، غداً سأذهب واياه إلى تدمر قبل أن يعود إلى بريطانيا ، يقول انه سيدعونني للاقامة اسبوعين عنده في في لندن ، ارجوك لا تقولي لأحد ، خاصة لأهلي وللميس المرادي ، إذا سألوك عني قولي لم أرها . سأذهب إلى بريطانيا. اظن أن مورتون وايت بدأ يحبني ، أمل أن تتطور الأمور بيننا وأن نعيش معاً ، سأترك هذا البلد الحقير ، نصحتها بالتأني والتفكير ، فلقد عانيت انا نتائج الحب والزواج المتسرع ، الزواج الذي يأتي كرد فعل ، لكنها كانت متعلقة بالدكتورو . .

تدخل زهير في الحديث قائلا :

ـ كان تعلقها الشديد بمورتون وايت هو دفاعها الوحيد ضد الورطة التي اوقعت نفسها فيها لة . . . .

ـ انتم الذين اوقعتموها كما توقعون كل فتاة.

اجابت فوزية محتدة ، ثم اضافت موجهة الحديث إلى زهير :

ـ احك له أنت ماذا حدث معك

بدأ زهير يحكي :

ـ ياسيدي ذات يوم اتصل بي في الجريدة صوت نسائي خيل لي أني سمعته ، عرفت نفسها قائلة أنا دلال إن كنت تذكرني ؛ طلبت زيارتي واتت بعد نصف ساعة . كان وجهها غير الوجه الذي رأيته في حفلة مورتون وايت . قالت لي أحببت أن أتعرف على الجريدة من خلالك فربما أجـد عملا . . مللت التدريس . عرفت أنهـا تفكر فيك وقداتت إلي لأنها تعرف مدى علاقتي بك ـ اتبعت طريقتك في التعامل مع الناس وتجاهلت انني فهمت سبب زيارتها. بعدها قالت هذا الصيف سيكون حاراً فيما يبدو ، الم يستدعوك أنت

للاحتياط مثل صاحبك ، لاحظت أنها تقول « صاحبك» باستخفاف متعمد حتى تخفي عواطفها الحقيقية ، فتأكدت انها آتية لتسأل عن صاحبي هذا لكن كبرياءها يمنعها . ودعتني وذهبت دون أن تسأل عنك وقالت أنها ستتصل أو تأتي مرة أخرى لكنها لم تفعل، ولم أرها بعدها . . اكملي أنت يا فوزية

عادت فوزية للكلام :

ـ لا زيادة تستحق الأهمية عادت دلال تقيم عندي أكثر الوقت. منعتها كرامتها وكبرياؤها من البقاء في بيت مورتون وايت على الرغم من أنها كانت تزوره يومياً ، لم تحدثه عن خلافها مع اهلها على الرغم من انها اصبحت شبه مشردة ، دعاها إلى بريطانيا لتقيم عنده اسبوعين ، استلمت اموال ساعات التدريس ودفعت ثمن البطاقة وقد ارسلت لي هذه البطاقات ، لم ترسل أية رسائل ، تفضل تفرج .

كانت بطاقات عليها صور لجسر لندن وساعة بيغ بن وأحد القصور الملكية ، وكان هناك صورة لدلال تقف على باب مطعم مكتوب على زجاجه بالعربية :

اهلا وسهلا

نحن نتكلم العربية

اللحم مذبوح حسب الشريعة الاسلامية

على بياض الصورة الخلفي كتبت دلال : انا هي «نحن» الذي يتكلم العربية ويذبح الفراريج حسب الشريعة الاسلامية.

احس يوسف بسكين تنغرز في قلبه . نظر إلى عيني زهير فرأى الاسى الذي يعرفه في عينيه وقت الالم الحقيقي. سمعه من خلال اساه يهتف وكأنه صوته الداخلي :

ـ أنها تدفع ثمن اخطائنا

اراد يوسف أن يتكلم شيئاً ما ، فقال مؤيداً :

ـ انها تدفع ثمن تخلف مجتمعنا ، ثمن مرحلتنا ، ثم . .

انتفض زهير في وجهه وهو يقول غاضباً :

ـ لا تتفلسف على سمانا ؟ . انها تدفع ثمن اخطائنا نحن تحديداً . . أنت . . أنا . . وامثالنا . . نحن . . نحن . . لك نحن بغايا النوع الرابع . . .

قاطعه يوسف :

لميس المرادي

لميس المرادي ، مدرسة لغة عربية في الثلاثين من عمرها ، عزباء ، قليلة الكلام على العكس من المدرسين. بيضاء ، متوسطة الطول تضع نظارات طبية فوق عينين جميلتين ، ترتدي ثيابها باهمال يكسب مظهرها الخارجي اناقة من نوع ما . يبدو واضحاً لكل من يحدق في عينيها انها تخفي وراء نظراتها الصارمة وطريقتها في الكلام ، سراً دفيناً تضن به على الآخرين وعلى العالم . تضن به حتى على نفسها ، لقد تناست سرها حتى نسيته .

كانت لميس معروفة بجديتها المفرطة ، تكثر من التدخين وتكره شرب الخمر ، إلا البيرة ، تنظر بشيء من احتقار إلى الاحاديث التي تدور حول الثياب والطعام ، لكنها كانت تسعد كثيراً عندما ترى حبيبين ، وتحاول أن تتدخل إذا ما حصل خلاف ، أو تدعو الحبيبين إلى بيتها لشرب الشاي ، وتسألهما دائماً : متى ستتزوجان . . متى سنفرح بكما ؟

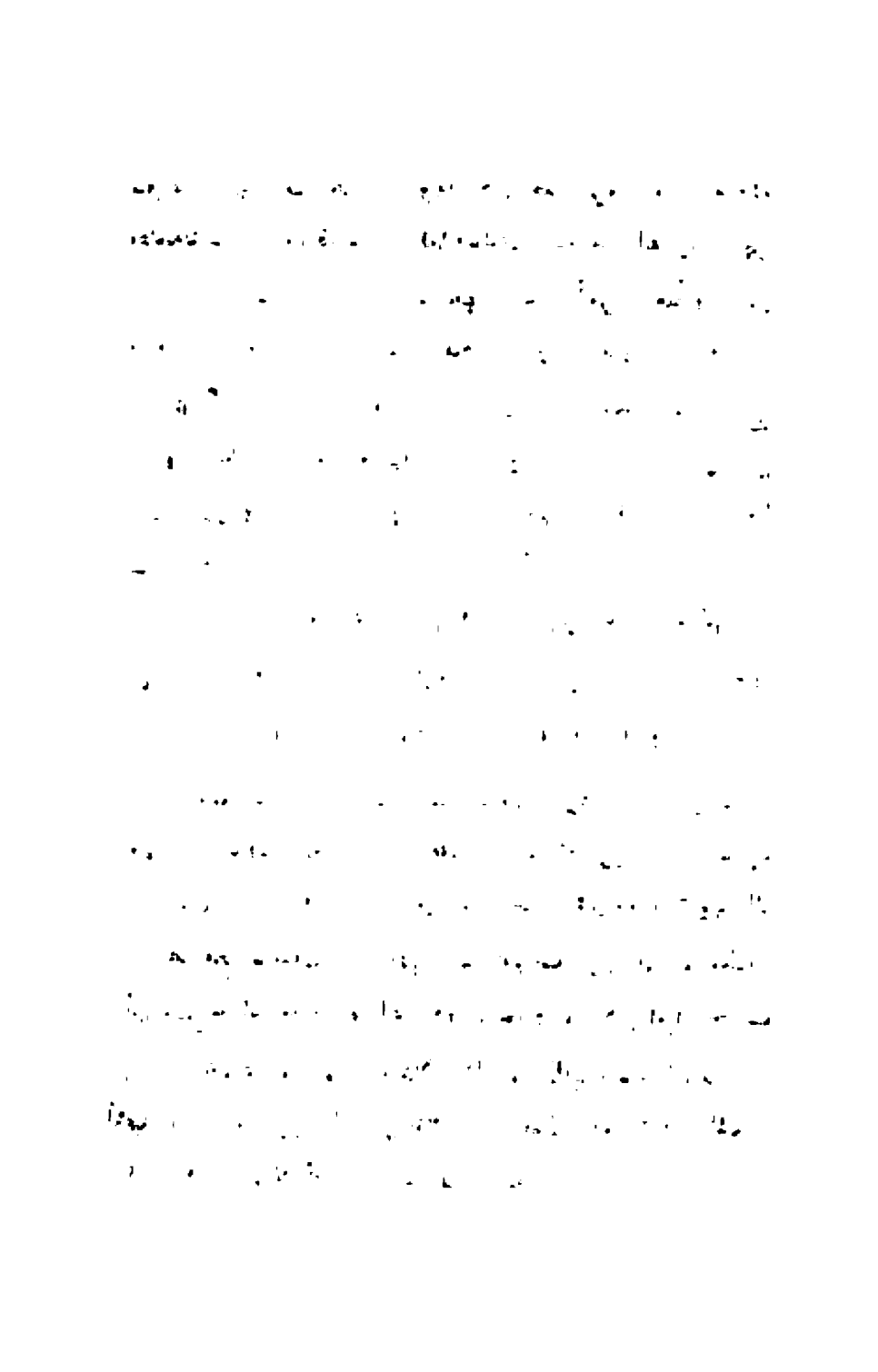

تساوعدنني في تغييرها ؟.. وما كانأحد يجرؤ على المحاولة الجدية لتغيير صورة لميس.. لقد صدق اكثرهم الصورة التي رسمتها لنفسها ، ومن لم يصدقها رأى الأمر صعباً وجرى وراء قصة أسهل كزميلها اللطيف جورج الذي حاول مرة مغازلتها وعندما صدته ، صدق ، واعتذر ثم تزوج زميلتها سعاد ، أما رفيقها في التنظيم ، هيثم ، فهو مثل أكثر الذين يعملون في السياسة ، لا يهتم وربما لا يفهم شيئاً عن العواطف الانسانية ، وهكذا أخذت لميس المرادي تزداد جفافاً واسى . واصبحت مثل جذع شجرة يابس القشرة ، مثل وردة ذبلت اوراق محيطها الخارجي ، فمن ذا الذي يستطيع أن يرى النسغ الذي يصعد خلف القشرة اليابسة ؟ . .

كانت لميس تعرف قصة يوسف ودلال ، وكانت تتمنى أن تلعب دوراً ما ، فقد كانت تريد جذب دلال إلى أفكارها ، وأكثر من مرة اقترحت عليها أن تزورها مع يوسف ، وحتى أن تتعرف هي على يوسف ، وأن تشرح له حقيقة مشاعر دلال نحوه ، لكن المياه جرت في أنهر أخرى ، وذهبت دلال إلى بريطانيا ويوسف ضاعت أخباره ، واليوم ها هي تلتقي بيوسف مصادفة ، فلم لا تحادثه ؟ . . لم لا تحكي معه عن قصة حبه ؟ . . .

لميس المرادي

الساعة السابعة كان يوسف في «يامرحبا» وجد أن لميس قد سبقته . لفت نظره جمالها وكأنه يلاحظه للمرة الأولى . حياها ، قعد مقابلها ، وجد صعوبة في ابتداء الحديث معها ، وكما يحدث في مثل هذه الأحوال تحدثا عما يعرفانه سوية ، ثم لاحظا أن السماء ملبدة بالغيوم . قالت لميس بأنها ستمطر ، فقال يوسف ياليت فقد اشتقنا لجو الشتاء ، قالت لميس بأنها تعرف مزاجه المنطوي ، والمنطوون يحبون الشتاء عادة ، فوجىء يوسف بأن لميس تحادثه كمن يعرف طباعه ومزاجه ، كان يريد أن يسألها عن دلال ، مانع نفسها ، لكنه أخيراً سألها :

— هل تذكرين الحفلة التي حضرناها معاً ؟

كان يريد أن يدخل إلى حديث دلال عن طريق باب الحفلة .

— اذكرها . . لماذا هربتما أنت وصديقك ؟

— كنا مشغولين .

— لا . . غرت من الاستاذ الانكليزي . . دلال كانت صديقتي جداً وحدثتني كل شيء عنك . . أسمع دلال في بريطانيا . . اظن أنك تعرف ....

كذب يوسف وقال بأنه لا يعرف شيئاً ، بينما تابعت لميس :

— وهي ترسل لي البطاقات بين وقت وآخر . . كانت تتحدث عنك باعجاب خفي . . احسست مرة أنها تحبك ، ولما سألتها انكرت ، كأن تقول لي هذا الشاب هو من أفضل الشباب ،لكنهالا تعرف لماذا تتقاتلان عندما تلتقيان .. اتت بي إلى السينما لتعرفني عليك . . على صديقها القوي الشخصية كما قالت ، ففوجئنا بهروبك ..

— لم أهرب . . كنت مشغولاً . . ثم أن علاقتي بها هي علاقة قرابة بعيدة ... ما علاقتي بجوها ؟

قال يوسف محاولاً التملص من أية علاقة بدلال .

— اعرف . . اعرف . لكنك كنت الوحيد الذي

كان يستطيع أن ينقذها من ورطتها . . أنت الوحيد الذي احبته حقاً . . لم تقل لي هذا . . كبرياؤها منعها . . مثلما يمنعها الآن من العودة بعد أن تركها الدكتور . . حتى وأن كانت راغبة فلن تعود . . الآن على الأقل . . أنها من النوع الذي يظن أن العناد واخفاء العواطف هو من قوة الشخصية . . . من النوع الذي لا يستطيع الاعتراف بخطئه أو مواجهته . . أنا افهمها . . وكان يجب عليك أن تفهمها . . لكنك هربت إلى طرطوس . . .

ـ لم أهرب . . استدعوني إلى الاحتياط .

قال محاولاً رمي المسؤولية على الظروف .

ـ لا . . أنت هربت . . مثلها ، شعرت بالصغار وعقدة الدونية أمام الانكليزي . . أنت الذي كان يجب أن يطرد الانكليزي من حياتها .

ـ وهل الحب مبارزة ياميس ؟

انتبه إلى أنه يدعوها بلميس للمرة الأولى ، دون أن يسبق اسمها بـ « آنسة » .

ـ نعم مبارزة . . بالنسبة لها على الاقل . . أنت لم

تعرف كم كانت . . كم هي فتاة جيدة . . حدثتني عنك . عن انتمائك . . كانت تعرف أنني واياك من فكر واحد . . هل تعرف أنها بعد أن تعرفت إليك انقلبت كل افكارها. كانت تأتي إلي وتقول . . اتقاتل معه دائماً . . منطقكم قوي يالميس . . أنت ويوسف . . كنت أعرف ظروفها . . وسمعت كيف تركت اهلها وعاشت اكثر أوقاتها عند فوزيـــة والدكتور . . فنصحتهـــا بالتريث في الالتزام السياسي لأني عرفت أن رغبتها كانت صادرة عن لحظة ضيق ، عن . . . كـــانت مـــع الدكتور الانكليـــزي ، ولما ذكرتها بذلك ضحكت وقالت . . ماالمانع . . ؟ ! انتم اممميون . ؟! !

— احدى نزواتها .

قال يوسف ، فجاوبته لميس قائلة :

— الا تعتقد انها كانت تبحث عن ملجأ نفسي . . فكري ؟

— ربما . . ممكن . .

قال يوسف ثم أضاف :

– ليس العمل السياسي ملجأ . . ليس تعويضاً نفسياً . . .

انتفضت لميس وقالت :

– صدقت دلال عندما قالت عنك أن فيك جانباً قاسياً وغير انساني وانك تحاول دائماً أن تخفي عواطفك . .

لم يجاوب ، لكنه شعر بالاحترام والمودة تجاه لميس ، وبدأ يحس أن عاطفة هادئة وعميقة تتلمس في حناياه . لم يدر كيف جرؤ ومد يده إلى يدها فوق الطاولة .تغير لونها وهزت رأسها بينما كانت تسحب يدها عن الطاولة قائلة :

– عفواً . . .

• • •

دمشـــــق

مع افتتاح العام الدراسي الجديد ٨٢ــ٨٣ وقع حادث فاجع ضاعف مصائب المساعد يونس. ففي اليوم الأول لذهاب الصغير علي إلى المدرسة ، وكان قد ترفع إلى الصف الرابع صدمته سيارة عسكرية في الطريق إلى المدرسة ومات فوراً ، فأصبح المساعد يونس وحيداً مع زوجته ، لا سيما وأن محمداً أخفق في دراسته وذهب إلى الجيش ، تاركاً البيت مثل دلال . كان المساعد يونس يحس أن العمر ذهب هباء وأنه يكاد يصل نهاية العمر ليجد انه لم يفعل شيئاً . وها هو يعود إلى مرساه الأخير سفينة محطمة. فكل شيء في حياته مدمر . . وبعيد . . محسن في روسيا ، وقد كتب إليه انه تزوج فتاة روسية ولا يدري متى يعود ، ربما بعد عشر سنوات ، وقد لا يعود . . قد يذهب إلى قطر عربي آخر ، وكل ما يعرفه عن دلال أنها

تشتغل وتعيش في بريطانيـــا ، ولا يعرف هل ستعود أم لا ، لقد أرسلت بضع بطاقات جافة تخاطب فيها امها فقط وتقول فيها أن صحتها جيـــدة ، وأنها تعمل ، لكنها لم تشر إلى موضوع العـــودة . كانت وفـــاة أخيهـــا علي فرصة جعلت المساعد يتناسى كبرياءه الجريح ، ويطلب من أمها أن تكتب لها طالبة العودة ، ولكن دلال لم تعد ، أرسلت رسالة تقول فيها أنها ما تزال تبكي منذ أسبوع ، وأنها لم تكن تظن الحياة قاسية بهذه الدرجة ، لكنها لم تشر بشيء إلى موضوع العودة .

في ١/ ١/١٩٨٣احيل المساعد يونس على التقاعد بعد ثلاثين عاماً قضاها في الجيش ، وعاد إلى قريته حاملا احلامه بالاستقرار في مسقط رأسه ومرتع صباه ، كان البيت الذي يبنيه منذ عامين قد انتهى ، فسكن فيه مع زوجته ، ثم تشارك مع أخيه محمد على « مكروباص» وعمل على خط طرطوس ـ دريكيش . كان يحس أنه يجب أن يشتغل شيئاً ما ، والا مات من الفراغ ، واحلام تقليم الزيتون والزراعة ، وشرب المتة مع الاصدقاء سرعان ما تبخرت . فالعمل الزراعي قليل . والاصدقاء القدامى باتوا مشغولين كل بعمله ، ثم انه

اعتاد العمل ولا يستطيع أن يبقى اليوم كله قاعداً في البيت . واليوم ها هوالمساعديونس يقودسيارته على الطريق التي طالما قطعها مشياً ، مفكراً بحياته وضيعتها ، منتظراً عودة محسن ؛ ومحاولاً أن يطرد شبح دلال من نفسه آملاً بينه وبين نفسه أن تعود ذات يوم ، وأن تبدأ حياتها من جديد . كان يحاول عبثاً أن يطرد دلال من مخيلته ، دلال التي تحولت إلى أسى ظاهر في عينيه ، وشرود دائم ، وحزن دفين يتهرب من مصارحة نفسه به . كان يتهرب من ذكرها امام والدتها ، من ذكرها امام الناس ؛ لكن صوتها يظل يصرخ في أعماقه « تضربني ياحقير » فيحس بالألم والغضب والاسى ويتساءل : أين أخطأت في تربيتها . . الاولادفي هذه الايام ليسوا اولادنا . . اولاد المدرسة والحارة . . صحيح لكل جيل زمانه . . . يتساءل ثم يهمس لنفسه :

كان يجب أن تتحملني . . . أبقى أبوها مهما اختلف زمانها عن زماني . . لقد غفرت لها كثيراً من الأخطاء . . كان يجب أ نتعود بعد أن يبرد غضبها وغضبي ،

ثم يتساءل والاسى يغمر قلبه كمن جرحه اقرب الناس اليه :

«لماذا تركت البيت . . لماذا رفضت أن تراني . . . يالهي أين أخطأت معها ؟ حاولت أن اربيها على احسن ما تكون التربية . . أن اربيها بعيداً عن جيران السوء . . كنت اعرف مفاسد الحياة في دمشق . . حاولت دائماً أن أن اربيها دون عقد . . . لم أحاول أن أفرض عليها امراً . . حتى يوسف لم أتكلم معها عنه أبداً . . أليس طبيعياً أن يرغب الوالد لابنته شاباً صالحاً ؟ كانت تريد أن تمنعني حتى من أن أتمنى . والشاب نفسه كان مهذباً . لم يفتح الموضوع معي أبداً ، لم يتجاوز حدود اللياقة والقرابة . من طبيعة عواطف الوالد أن يتمنى الخير لابنائه ، متى يعود محسن ، أن شاء الله يعود قبل أن أموت . محمد مشي حاله في العسكرية . أن شاء الله تعود دلال ، اخ عليك ياعلي . . ماذا فعلت دلال عندما سمعت بموت علي ، كان يحبها وكانت تدلله إن شاء الله تعود . . . تعود أو لا تعود إلى الجحيم . هي وحيدة في لندن ، كيف تعيش ياترى ؟ لا تفكر بنا . بأبيها وامها واخوتها . . . دلال لا تشبه امها . . خديجة امرأة رقيقة . . تربية البيت في هذه الأيام لا تفيد . . يتربون في المدرسة والسينما والحارة . يتربون من التلفزيون وليس من البيت . . سأبيع البيت في دمشق . . سأتخلص من آخر ما

يربطني بهذه المدينة التي اكلت عمري وشبابي . . هدمت اسرتي . . هذه المدينة التي قتلت طفلي وشردت ابنتي وضيعت محمد في اللهو . . سأذهب إلى دمشق الاسبوع المقبل . . سأبيع البيت وأشتري بثمنه كرم زيتون . . أثمان البيوت في هذه الأيام مرتفعة ، لا من الأفضل أن اشتري بيتا في طرطوس ، من الأفضل أن اشتري عيادة واجهزها حتى يعود محسن ، من يدري متى يعود محسن : هل سيشتغل في طرطوس أم أنه سيعود ليستقر في دمشق . تعود على دمشق ، من الأفضل أن اترك له البيت في دمشق . هو يقرر في المستقبل اين يسكن . . . الأفضل أن . . . »

— مرحباً عمي أبو محسن .

انتبه ابو محسن من شروده في افكاره على صوت التحية ، كان جالساً في مقهى ساحة انتظار السيارات في الدريكيش منتظراً أن تمتلىء سيارته بالركاب ليذهب بهم إلى طرطوس ، نظر إلى المحيي الذي عرفه من صوته :

— يوسف . . . استاذ يوسف . . . اهلا . . اهلا . . ما تفعل هنا . تفضل . .

قام معانقاً يوسف . ثم طلب له فنجان قهوة

— اهلاً وسهلاً . منذ زمن طويل . . طويل . لم نرك.

— صحيح . . وانت ماذا تفعل هنا ؟

سأله يوسف الذي دهش أيضاً من وجود يونس في المقهى .

— آه . . تقاعدت وعدت إلى القرية . . . والآن انا سائق على هذا المكروباص .

واشار إلى سيارة واقفة في الطرف المقابل من الساحة .

— هذه التي ستنزل فيها إلى طرطوس ؟

سأل يوسف متعجباً .

— نعم . . نعم . . ماذا حدث معك أنت . . ما عدنا نراك . . ماذا تفعل هنا ؟

تدافعت أسئلة يونس معبرة عن أشواقه وحبه ليوسف .

— اتيت لبعض المعاملات . . . سأنقل قيد نفوسي إلى دمشق واستقر هناك . . انتقلت من يبرود إلى دمشق

— ووجدت بيتاً في دمشق ؟ . حظك جيد . . اين تسكن . . . ؟

— لم أجد بيتاً بعد . . اسكن عند صديق لي . . . ماذا حدث لبيتكم في المزة ؟

التمعت الفكرة في ذهن يونس فقال فوراً :

— يايوسف . . نحن أهل . . لأؤجرك البيت شريطة أن ترجعه لي عندما يعود محسن من روسيا . . . إذا قرر العيش في الشام . . أنت مثل ابني . . مثل محسن .

اقترح المساعد ، سكت برهة ثم سأل :

— . . لكنك كنت تفكر بالعودة إلى طرطوس والعيش فيها . . ماذا حدث لك . . هل سحرتك الشام ؟

ثم ابتسم اسيان واضاف وهو يتذكر دلال :

— اعني احدى فتيات الشام الجميلات ؟

ابتسم يوسف إذ تذكر لميس المرادي ، ومد يده يتناول فنجان القهوة ، غابت البسمة عن وجه يونس وهو يتابع :

— اتمنى لك التوفيق في الشام يااستاذ يوسف . . . اما أنا فقد خربت بيتي . . ربما يكون حظ جيلكم أنت ومحسن افضل من حظ جيلنا .

عندما ذكر يونس ، ابنه محسن . قفزت دلال إلى ذهنه ، وتمنى أن يسأل عنها يوسف ، ثم قال لنفسه حتماً يوسف يعرف اخبارها . كان يوسف يتذكرها ، ورغب

أن يسأل الاب عن اخبارها ، لكنه لم يجرؤ ، كان يونس ويوسف يفكران بدلال معاً ؛ ولا أحد استطاع ايراد اسمها على لسانه .

ـ تفضل . . تفضل يااستاذ يوسف . . لنمش . .

السيارة امتلأت بالركاب .

مشى يوسف باتجاه السيارة ، ركب فيها قرب النافذة وهو يفكر باحلام يونس واحلامه . بحياته والايام التي شهدها . والناس الذين عرفهم في طرطوس والحسكة وبيرود ، بالجيش والحروب والتعليم والحب والفلسفة ، بيونس ودلال ومحسن وعلي وأم محسن ولميس المرادي وفوزية الصباغ ومنرفا وزهير ومورتون وايت و. . . . و. . . . . و. . . . و. . . . . و. . . . . و. . . . .

همس لنفسه وهو ينظر عبر نافذة السيارة إلى اشجار الزيتون المنتشرة على السفوح المحيطة بالطريق الجبلي « دورة أخرى للزمن » تذكر قول غاليله الذي لا يمل من ترديده امام طلابه . « ومع هـــذا فهي تدور » هز رأسه وهو يتمتم بصوت مسموع كمن يخاطب شخصاً آخر :

— ومع هذا فهي تدور . . . تدور . . .

نظر إلى يمين الطريق ، كانت اشجار الزيتون والسنديان والبلوط والقطاب والبطم والخرنوب متناثرة تارة وتتجمع تارة اخرى على السفوح الجبلية ؛ مد بصره اسفل السفوح نحو الوادي فرأى نهر « قيس » ، يمضي متلوياً متعرجاً بين الوديان نحو مصبه الأخير ؛ نحو البحر تذكر قول التوراة « كل الانهار تصب في البحر والبحر ليس بملآن » ، كان ما يزال يفكر بيونس وحياته واحلامه ؛ بحالته هو ؛ الحاضرة والآتية ويتساءل :

« تدور . . . تدور . . هل هي دورة جديدة لهذا الزمن اللعين ؛ أم أنها كغيرها من الدورات ؟؟ ! ! . . . تدور . . تدور . لكنها في النهاية تمضي وتمضي ، مهما تلوت ومهما تعرجت . . تمضي ، نحو البحر تمضي ك . . . ك . . . كهذا النهر . . تمضي كهذا العمر . . . تمضي و تمضي . . . ومعها . . . معها تمضي »

١٩٨٤

١٩٨٦/ ٩ / ١ط٣٠٠٠

سعر النسخة

١٣ ل.س.ل

الطبع وفرز الالوان مطابع وزارة الثقافة

دمشق — ١٩٨٦